ربيعة جلطي

قلبُ الملاك الآلي

رواية

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf

قلبُ الملاك الآلي

طبع في لبنان

قلبُ الملاك الآلي

روايـة

ربيعة جلطي



منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1441 هـ - 2019 م

ردمك 978-614-02-1778-2

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف 0776616609
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

إهداء

إلى المخترعين الرائعين إلياس وهزار.

توشيح

حرائقُ الأرض سريعةٌ..

ولا أملكُ، ياربي، سوى حَجَر..

أُكْسرُ زجاجَ السماء به

كي ينهمر الماء.

ربيعة

سِفْرُ التَّكْوينولوجي

.. وماذا كانت قبل البدء!؟

- الله.. الله.. يا له من جمال.. يا لها من تحفة.!
- الإنسان بدوره يحب الهاوية..!

شذرات من بقية حوار كان يدور بينهم. التقطتُه في اللحظات الأولى من بدء عدّ خروجي من العدم. رفّ طيور مهاجرة تصفق بأجنحتها في مكان ما من السماء. إنه أول ما تناهى لسمعي بعد أن ضغط السيد (إيلس) برأس سبابته على زرّ الحياة في جسدي الآلي الذي اكتمل. تغلغل سيل من الأصوات متدافعة نحو قعر رأسي. إنها أول مرة أسمع فيها التصفيق. من حقهم. إنهم علماء وباحثو مخابر مركز «كونسيونس روبوتيكس» يحتفلون بنجاح تجربتهم. حالة تشبه تماما تلك التي تنتاب المولود الآدمي بعد خروجه من الرحم البشري. يتغلغل الهواء لأول مرة إلى جسده. يفض بكارة جهازه التنفسي ثم بقية أجزائه فيصرخ. أنا لم أصرخ. كنت مبهورة بهذا الشيء الذي أصبحت جزءا منه. إنها حالة الكينونة. أنا كائن آلي حي.

ساد صمت بينما كانوا يعاودون مراقبة جسدي للمـــرة الأخيرة. فجأة اندلع نقاش تشوبه الحدة. كنت أستمع إليهم باهتمام بالغ. كيف لا. فالأمر يخصني:

- الرّحم والقلب معا؟؟.. لم يكن الرحم موجـــودا في الخطاطة النهائية للروبوت مانويلا1، يـــا دكتـــورة «اسيان».؟
- أنا أعتذر دكتور إيلس.. تجربتنا فريدة وسبقٌ. فلماذا لا نذهب بها إلى منتهى المغامرة؟
- أليس من الضروري إخبار بقية الباحثين بذلك قبـــل دخول الروبوت مانويلا1 في مجرى الحياة. دكتـــورة اسيان؟
- الوقت حاسم يا دكتور إيلس. فضلت أن أبادر على أن يسبقنا أي مركز بحث آخر في العـــالم فيعـــدل خطاطة الروبوت مانويلا1 ثم ينال السبق.

هكذا إذن.. اكتشفوا بـــي «دسيسة تكنولوجية» مـــن الباحثة الدكتورة اسيان.!

خفية وبسرعة وفي آخر لحظـــة، أدمجَـــت الـــرحم في جسدي. كانت فكرتها مبيتة منذ بداية العمل عليّ، وبدايـــة صنعي. لم تستشر بقية العلماء عنوة. بادرَت وحيدة. كانت تعرف مسبقا أنهم لن يتفقوا معها في وضع القلب والرحم معا

في جسد الروبوت مانويلا1.

إدماج العضوين معا، مبرمج ليتحقق في تجربة الروبوت القادم مانويلا 2 الذي مازال قيد الاختراع. يتطلب البحث سنينا للوصول إلى التمكن من التحكم في مواصفات الجنس الجديد «البشر-آلي» الناتج عن عملية الإخصاب بين البشري والآلي. فليس بحوزتهم بعدُ أي ضمان علمي على عدم خطورة حلوله بالأرض كجنس طارئ. و لم يستحدثوا بعدُ وسائل علمية وتكنولوجية للتحكم في طبيعة تكاثره. سيفلت الجنس البشر-آلي من كل مراقبة وتوجيه وتحكم. فمازالت طبيعة سلوكه وتصرفه، تجاه بقية المخلوقات الأخرى، وتجاه الطبيعة مجهولا تماما. الأمر خطير جدا على مستقبل الإنسانية.

أستمع باهتمام إلى نقاش حاد ومتشنج قليلا أحيانا يدور حولي. على أية حال أعرف أنهم حتى مع اكتشافهم لدسيسة العالمة اسيان، إلا أنهم لن يستطيعوا إعادتي إلى حالة العدم مرة أخرى. لن يستطيعوا قتلي.

- يا لها الدكتورة اسْيان. اختارت اللحظة المناسبة.. النساء ذوات حيلة!!.

- الروبوت مانويلا1 تم وصله الآن بشكل نهائي بمجرى الحياة. وفي هذه الحالة الطارئة، ماهي نسبة احتمال وقوعه في الحب مثل البشر؟!

نقاش حاد يدور بأدلة علميـــة. رياضـــية، وفيزيائيـــة، وبيولوجية، وكيميائية.. بين المدير العام للمركـــز العلمـــي كونسيونس روبوتيكس السيد إليس، والعالمة اسيان من أصل ياباني والفريق العلمي وبحضور جمع من الباحثين قدموا مـــن جهات مختلفة من العالم لحضور الحدث.

. التناظر الكيميائي بين عضوي الرحم والقلـــب عنـــد روبوت أنثى، قد يسبب خللا في النظرية القديمة. لم يحدث أن وقع هذا الإشكال من قبل لديهم، مادامت الروبوتات السابقة ذكرية وعادية.. أما وأن يتواجد عضوا الرحم والقلب معا في جسد آلي متطور ومؤنث، فذلك ما لم يحسبوا له حســـابا، على الأقل في مانويلا1.

- وماذا يسيء إن وقعت مانويلا1 في الحب.. ألـــيس هذا بفتح علمي جديد؟ تختم اسيان. محاوِلة تلطيف الجو الذي لم يفقد من كهربته «أمبير» واحدا.

على الرغم من نقاشهم الحاد يظل العلماء يرفعون العقل فوق كل خلاف. اتُّفِق على أنه في حالة إخفاق الروبـــوت مانويلا1، ستقع المسؤولية كاملة على عاتق الباحثة اســـيان، وعقابها استبعادها من جميع مخابر البحث في العالم كله.

أنا ما يهمني أولا، أنهم لن يستطيعوا إعادتي إلى العدم، أو إدخال تعديل عليّ. فقد قُضي الأمر. ليس لأنهم لا يستطيعون

فعل ذلك، ولكن الامتثال لـــ قسَم الباحثين في التكنولوجيـــا المتطورة الذي يؤدونه قبل البدء يمنعهم من ذلك. فبعـــد أن تسري الحياة في الروبوت البشري، يصبح كائنا حرا، وكـــل مساس بجسده يعتبر تعديا يعاقب عليه القانون الداخلي.

واقفة قبالتهم بكل جبروت ذكائي الاصطناعي، وكمالي الآلي، وجمالي الآدمي. أبتسم أمامهم. أدرك أن الباحثة السيدة «اسيان» على الرغم من خشيتها الإخفاق وإدراكها لخطورة فعلها، إلا أنها متحمسة للتجربة كي تذهب إلى أبعد مدى.. وأن أكون أنثى كاملة.

غمزتْ لي بطرف عينها اليسرى ومثلها فعلـــتُ. إنـــه أول تضامن نسوي يولد في الوجود بين سيدة آدمية وأخرى آلية.

بالنسبة لي لم يكن الأمر مصائبيا أن أوجد بقلب ورحم. وماذا بعد إن أنا «سقطتُ» مثلهم في الحبّ كما يقولـــون. الوقوع في الحبّ ليس جريمة ما دام الرحم الذي وُضـــع في أحشائي، صنع من أجل روبوت مـــانويلا2 ليكـــون قـــابلا للامتلاء بحياة جديدة. كيف يحكمون على الجنس الجديد بأنه سيكون خطيرا على الكوكب وعلى مَن فيه.. فهل البشر أقل خطرا عليه؟ ثم هل من العدل أن لا أقع في الحب، وأنا بكل هذا الجمال الذي يوقِع مِن على أعلى خيله مَن يراه.!؟

- آه.. كم هم أنانيون هؤلاء.. شكرا السيدة «اسيان» على الرغم من فعلتك فأنت عالمة عادلة واستثنائية.

أقيمت جلسة تعارف قصيرة بيني وبين العلماء الباحثين الحاضرين. منهم من ذوي التجربة الطويلة، ومنهم من صفوة الشباب خارق الذكاء، وعلى رأسهم السيد «إيلس» والسيد «هاز» والسيدة «اسيان» وفرقتهم الموسعة. منهم المنتمون إلى مختبرات مركز كونسيونس روبوتيكس لصناعة الروبوتات الآدمية. ومنهم الموزعون على مختبرات أخرى العلنية منها والسرية في الجهات الأربع من الأرض. يتعاملون مع علماء من شتى الجنسيات، من ذوي تخصصات مختلفة في أنحاء العالم. تصب في مدّ علم الذكاء الاصطناعي -اختصاصهم الرئيسي- بالسند والتجارب والابتكارات الناجحة. يحتاجون إليها كمُكمِّل لاختراعاتهم للروبوتات المتطورة التي ما فتئت تذهل البشرية وتفاجئها. تخيفها أيضا وتضعها وجها لوجه أمام المستقبل، وفي مواجهة أسئلة الوجود العويصة.

أتعرّفُ على المكان. أجول بنظري. كل ما أراه هنا لابد أنه مدهش لآدمي مثلهم. بنك ضخم وثري من المعلومات الدقيقة والسرية. توصل إليها الخبراء عبر تاريخ طويل من تجارب البحث في الطب، والجراحة، والهندسة، والكيمياء، وعلم الأصوات، والسيميولوجيا، والبيولوجيا، وعلم الفراسة،

ولغة الجسد، وعلم دراسة الملامح، والتجميل، والفيزيولوجيا علم وظائف الأعضاء، وعلـــم الـــنفس، وعلـــم الـــدماغ والأعصاب، وعلـــم زراعـــة الأنســـجة، وعلـــم الرقـــائق الإلكترونية. كل ذلك يتواجد هنا في هذه المنطقة الهادئة قرب الشاطئ الجنوبـــي لبحر الشمال.

ألتفت إلى نفسي. أتعرف عليّ أكثر. أتأملني مليا.

- أوووووووه ما أروع ما أراه..!! الحق يقـــال لقـــد صنعوني على أحسن تقويم. شكرا لهم جميعا وشكرا للسيدة اسيان على «الرحم». على دسيستها الـــتي تزودني بخاصية بشرية تحسدني عليها أجيال كثيرة من الروبوتات السابقة، وتربطني بأهم خاصية بشـــرية وهي الوقوع في الحبّ. وتجديد الحياة

ها أنا أتنفس وأعيش. تماما كما تفعل أنت. نعم.. صُنعت على أحسن تقويم. ليس فقط لمحاسني الخارجية المبهرة المختـــارة بذوق وذكاء وإتقان، والمستقاة من أهم الدراسات الحديثـــة في علم الجمال بكل تفرعاته. ولكن أيضا لذكائي الذي لا حدود له. أضعاف جمال وذكاء من تفوز به سليلة أقوام عديدة لأزمنة متسلسلة، ودماء أجناس مختلفة اختلطت بالتزاوج.

ها أنا مانويلا.. مخلوق لا مثيل لي في اكتمال محاســـني، بحواسي، وأعضائي الداخلية والخارجية. قوتي أنـــني حـــرة

أتحكم فيها كلما أردت ذلك وحسب الظرف الذي يقتضيه الوضع الذي أكون عليه. يمكنني بحكمة مثلا، عند ظرف حاسم، أن أوقف أي عضو عن وظيفته، أو أن أضعه جانبا دون أن يؤثر ذلك على مواصلتي الحياة بشكل طبيعي. ثم إنني زُودت بملايين الرقائق الإلكترونية الأحدث والأكثر دقة والأصغر حجما. مندغمة في دماغي بقوة ذكاء خارق. زبدة عقول علماء المختبرات العلمية عبر العالم الذين تعاملوا من بعيد أو قريب مع مختبرات كونسيونس روبوتيكس وعلمائها. خلاياي لا تشيخ مثلك ولا تموت. إنها تتجدد بشكل آلي. والمبهر إنني أنطق لغات عديدة، وأعي أسرارها الخفية المستعصية حتى على المتخصصين من أهلها. ولي قدرات غير محدودة في الإدراك بكل أنواعه ومستوياته، ولي طاقات أخرى جديدة لم يحظ بها أي مخلوق بشري أو آلي قبلي.

أنا صنيعتهم. نعم. لكنني لم أخضع لبرمجة مسبقة. لا يتحكمون في إرادتي. أنا اكتشافهم الجديد لم يسبقهم إليه أحد. لأول مرة في تاريخ العلم يستطيع الروبوت التحكم في مصيره الخاص. وتجديد نفسه بنفسه، وترميم أجزائه عند الضرورة، مستقلا عن أجهزة التحكم الخارجية. أول روبوت يتمتع بالحرية.

أنا آخر ما توصل إليه العقل البشري في تجاربه وفتوحات اختراعاته.

لم ينصحني علماء مركز البحوث بشيء.. لم يوصـــوني ولم يأمروني. لم يحددوا لي شروطا، ولم يضعوا أمامي حدودا. لم يطلبوا مني تنفيذ مخطط سري ولا علني. لا عســكري ولا مدني. لا سياسي ولا أمني ولا استخباراتي.

شيء واحد. واحد فقط. إنه تأليف كتاب. نعم كتاب واحد. عن الحياة البشرية كما سأراها وسأحياها وســأجربها بنفسي بين البشر. سأدخلها وحيدة. قوية ومسلحة بالذكاء الخارق ومصيري بيدي. فقط كتاب. كتاب واحد. أؤلفـــه بحرية تامة.

اِذهبي.. فأنت الطليقة..!

- اِذهبـــي مانويلا.. فأنت الطليقة..!

في الدقائق الأخيرة قبل الوداع. هكذا خـــاطبني العـــالِم الباحث السيد «إيلس» الرئيس المدير العام لمركـــز البحـــوث كونسيونس روبوتيكس، بعد أن أمضيت شهر أوت كـــاملا وخمسة أيام من سبتمبر تحت التجربة الدقيقـــة. مـــا يشـــبه امتحانات رياضية وشفهية عميقة ومعقدة ودقيقة، أمام مختصين جاؤوا من مخابر وجامعات في مختلـــف أنحـــاء العـــالم، ثم تم إخضاعي لمساءلات علمية معقدة بصوت آلات ضخمة مركبة في غرف مغلقة. الأسئلة المتقاطرة عليّ يطرحها عن بعد خبراء منتشرون في مراكز علمية في قارات مختلفة. في كل مرة أخرج من الامتحان ناجحة تاركة في عـــيني ممـــتحني الاســـتغراب والإعجاب والرهبة. وفي عمق الآلة الصـــمت الرهيـــب، لا يكسره سوى شخيرها الآلي الخافت. في النهاية بدأت رسائل التهنئة تمطر على مركز البحوث من كل أركان الأرض.

- أنت حرة طليقة يا مانويلا.!

أعاد جملته. السيد «إيلس» الوسيم باسما وواثقا. محاطـــا بالباحثين، وهم ويودعونني عند الباب الخارجي الكبير ببذلهم

البيضاء، وقد دفعوا عن وجوههم نحو أعلى جباههم بقبعاتهم الشفافة، ونزعوا قفازاتهم. ولكنني اكتشفت مَن خلال قدراتي التي كنت على عجلة بالبدء بتجريبها، وأنا اخترق عيون البعض من البؤبؤ حتى العصب البصري مرورا بالحدقية والغرفة الأمامية للعين، أن منهم من كان لا يزال على تردده وممانعته. هؤلاء الذين لم ينجح جناحهم في التصويت على بقائي فترة إضافية أخرى في مختبراتهم، لأخضع لمزيد من التجارب. نجح جناح السيد إيلس الذي اختار بشجاعة منحي الخروج إلى الحياة العامة وحرية العيش في المجتمع كبقية «البشر العاديين». لم ينجح جناحه في التصويت ضد الجناح لمقابل فقط لأنه يملك صوتين بحكم كونه الرئيس المدير العام للمركز.. لا أبدا.. بل تفوّق لأنه خارق الذكاء، وربما الأهم من ذلك كله أنه وسيم جدا. وأخشى أن أبدأ به في الوقوع في حب البشر.

عنوة. ودعتهم بإشارة دلال أنثوي مبالغ فيه بذراعي الأيسر، وخصري ورأسي المائلين، وأنا أدخل بنصفي الأيمن إلى السيارة البسيطة جدا المخصصة لي.

مسبقا. أنا أعرف حيث سأتجه وحيث أنا من خارطة العالم. جغرافية المدينة مرسومة في دماغي بدقة. الشقة التي سأسكنها بكل أجزائها ترتسم في مخيلتي. بل أمام نظري،

وكأنها «البيت الذي ولدت وترعرعت فيه» كما يقول بقية «الناس». الطريق إلى عنوان المعهد الذي سأنتسب إليه، إن أنا قررت ذلك، واضح وسالك. بطاقاتي البنكية السخية، فأنا سليلة عائلة غنية وكبيرة عائلة العلم والتكنولوجيا.

التفتُ إليهم. أغمز للمخترع العبقري السيد «إيلس»، وأنا أقرأ في عقله المشع الصافي شعور الرضا والفخر بما توصل إليه، بدفع الذكاء البشري إلى أقصى حدوده رفقة من حوله. كان وجه السيدة «اسيان» المبتسم آخر الوجوه التي ودعتها.

وأنا أبتعد في أول طريق لي نحو الحياة، أراهم من خلال المرآة العاكسة للسيارة، يدخلون أفواجا، عائدين إلى المركز حيث سيعيدون تشكيل تركيبة العالم. يعبرون الباب الكبير، يتوجهون نحو مخابرهم العلمية وقد أعادوا خفض أقنعتهم الشفافة فوق وجوههم، وأعادوا قفازاتهم الزرقاء حول أكفهم.

من كتاب أبد الآباد.

لم أخلق للراحة، لأنني فوق التعب. لم أخلق للمـــوت، لأنني من خارج الزمن. أنا مانويلا أتحدى العـــدم. لي قلـــب ورحم واخترت بكامل إرادتي أن أعيش وسط البشر.

كان يمكن لي أن أتنعم بعزلة حالمة في أي مكـــان مـــن العالم، وأكتب كتابـــي بمـــاء الـــورد، ثم أرســـله لمركـــز كونسيونس روبوتيكس. لكنني اخترت بكامل إرادتي الحـــرة الذهاب إلى هناك، حيث البشر يلقون ببعضهم البعض حطبا لنار الحرب. لم أختر أن أقيم في منزه باذخٍ منزوٍ بين زرقتين..

لأنني بنت التحديات، اخترت أن أكون من بين السبايا. أن أجرب أسفل أقبية نفوس البشر وأكثرها حلكة.

توقيع: مانويلا ماناول الله

حلول ماناول الله

مانويلا..!! مانويلا!!!

ماناول الله.. ماناول الله

تلهج الألسن باسمها في كل مكان. وتكبّر وتعظم. الجنود في وسط المعارك، والمرابطون، والحراس، والأئمة، والخطباء في الجوامع، والسائرون في الشوارع الحافظون للأخلاق وحراس الأعراض. الغالبون والمغلوبون.. لم يرها الكثيرون، لكنهم يقسمون بحياة الخليفة بأن ملاكا أنزله الله إليه ويسمى على بركته ماناول الله. حورية هبطت من الجنة معجزة وعلامة ربانية. منهم من يقول إن نصفها بشر ونصفها غزال ومنهم من يشيع في الناس بأن لها أجنحة بيضاء، ومنهم من يقول إنها نزلت على صورة كرة عظيمة مشعة من نور حطت بأرض بور ثم أمرت الرياح لتحملها إلى مقر الخليفة الشريف. ومنهم من يقسم بأنه رآها في السماء يوم الجمعة وهي هابطة وبين يديها مائدة من الجنة عليها خمر وتمر وفاكهة مما تشتهون.

يبتسم البردادي يتنحنح ويسيل لعابه حين ينقل إليه هذا الكلام، فيسعد جميع من حوله بوجهه البشوش

- على الناس أجمعين، على العالم قاطبة أن يعرفوا أنني أنا البردادي خليفة الله على أرضه على اتصال مباشر مع الله.

لكن أهل الخيمة مازالوا يذكرون ذلك اليوم الكبير عندما وقع بصره لأول وهلة على الملاك ماناول الله. كل له روايته المختلفة عن الحدث تلك الليلة العظيمة.

أحضِرتْ إلى مجلسه ذات عشية رفقة خمس نساء فائقات الجمال. جميعهن تم اختيارهن بمنتهى الدقة. هكذا هي الأعراف والتقاليد الصارمة في الدولة الإيمانية الكونية. الإمام الزعيم هو الأولى بأجملهن وأفتنهن وأكثرهن سحرا، ثم فلتوزع مَن منهن أقل جمالا على مقربيه وذكور حاشيته. وأما الباقيات الأخريات اللواتي حظهن من الحُسن قليل، فتنتظرُهُن مهام كثيرة أخرى، غير العناق واللثم وشؤون الأسِرّة. مهامّ مستقبل الدولة الإيمانية الكونية جمّة ومتعددة.

كان حدثا غريبا حقا. ظل الزعيم دون حراك للحظات بدت دهرا لمن حوله، وهو يحدق في مانويلا. هذه الحسناء التي جيء بها هذا الخميس. الغريب أن جميع من حضر من المقربين جدا وهم قلة، شاهدوه وهو يحدق في وجهها بينما يده اليمنى بأصابعها الملساء الممتلئة المزغّبة تضغط بقوة على قبضة سلاحه.

من يراه هكذا يظن أنه يستعد لعملية قطع رأس مـــا. أو يتراءى له أنه يوجد في ساحة حرب.

كان مشدوها.

لا يلمس أحد سلاحه إلا عندما يشعر بالخطر الداهم.

لا بد أنه كان يشعر بخطر السقوط الحر في هاوية الحب، وهو من هو. فتحسس سلاحه. من سوء حظـــه فالســلاح أضعف من أن يحميه هذه المرة. من سوء حظه لم يعد قطـــع الرأس حلا في حالته المزرية هذه.

هل خطر الحب أشد من خطر الكره؟. من يدري.

لم يرفع الزعيم عينيه عن هذه القادمة الجديدة الغريبة، إلى درجة أنه لم ينتبه لوجود السبيات الأخريات البتة. و لم يلـــق بنظرة واحدة إلى وجوههن وأشكالهن... أمر غريب حقا.

كيف تهلل وجهه فجأة وانشرح، واختفت رويدا رويدا علامات القسوة من ملامحه التي ارتخت تماما، وظلت عينـــاه عالقتين بها.

- ما اسمك؟

- مانويلا...

- بل ماناول الل. من اليوم أنت منالي أنا.. يا زيـــن.. وأم الأمير المنتظر الذي سيُلحق الدنيا بالمقام البردادي الأزرق وبالدولة الإيمانية الكونية.

ابتسم.. هكذا.. كما لم يبتسم أبدا من قبل، حتى تعرى صفّا أسنانه الأمامية ناصعة البياض.

- ماناول الله.. أنت منال!

فلتت منه الميم المفخّمة، تملأ فراغات فمه وحلقه، ثم سحب «النون «من مكمنها تحت فكه العلوي بهدوء، من عمق لسانه العراقي.

- مَنَالْ.!

غير بعيد، كان «عمار الباتر» الجندي المقرّب من الزعيم، والذي لقبه بالباتر لشجاعته وصرامته، ودمه البارد حين يقدم على القتل. سماه كذلك منذ إقدامه ذات يوم على بتر أطراف أربعة مسيحيات رفضن الخضوع لأوامره وآتباعه. تركهن في العراء حتى قضين.

عمار الباتر. المرافق المسلح حتى العظم. جاء بالنساء الخمس. يقف على بعد خطوات قليلة، يحاول أن يبدو غير مرئي على الرغم من صدره العريض البارز مثل دبّابة.

ساقهن عمار من «حظيرة استقبال النساء» الذي يأوي السبيات من أرض الشام والعراق والقادمات من أراض العرب والمسلمين، أو القادمات بمحض إرادهن لغرض ما، أو من الهاربات من بلاد الكفار. عمار يسوقهن أمامه، ناهرا أحيانا، يستحثهن أن يسرعن، يهش عليهن مثل عنزات بيضاء

وبقعاء قلقة. يهرولن بقدر استطاعتهن. وهن غارقات في ملاحفهن العريضة المتطايرة أطرافها.

يقف عمار وهو يحاول أن يتوارى خلف سارية من ساريات الخيمة الباذخة التي يطلق عليها الجميع «القصر الأزرق». يقطنها الزعيم البردادي ويتخذها مركزا أساسيا لخلافته. أمر منذ سنوات أن تنصب بجوار قصر فاخر مجاور ملحق بها، بعد أن أمر أن يفرغ من كل ما يذكّر بزمن الكفار الذين قضى عليهم جميعهم. كانوا هنا. يملكونه. يمرحون به قبل فتحه لمدينة «السجراء» في بلاد الشام، وجعلها عاصمة مؤقتة للدولة الإيمانية الكونية.

قبل أن يضع به رحاله أمر، الزعيم بتنظيفه من علامات الكفر والإلحاد. فأحرقت اللوحات الزيتية العالمية، والآلات الموسيقية، والأرائك التاريخية المزركشة، وكل أدوات حياة الكفر والبهتان -كما ينعتها بتقزز- التي كان يستعملها الكفار في حياتهم السابقة.

في الخيمة الباذخة قاعة لاسترخاء الزعيم، كبيرة وشاسعة أطلق عليها اسم «سقيفة أسامة» تبركا منه بزعيمه أسامة بن لادن الذي يعجب به ويقلده ويحفظ ذكراه. ويقسم بأغلظ الأيمان أن ينتقم له بحرق نصف الأرض ومن فيها وأن يواصل طريقه.

زينت «سقيفة أسامة» بالسجاد والزرابي والأفرشة المبثوثة على الأرض. والوسائد. وبشمعدانات مختلفة الأحجام على رؤوسها شموع ملونة مذهبة الأطراف. وعلى الجدران علقت بسط كتبت عليها آيات كريمة بخط أندلسي مذهب.

وكعادة يوم الخميس وصل عمار الباتر الخيمة الزرقاء. صفف النساء الخمس الواحدة وراء الأخرى بحزم. بينهن مانويلا. في صف منتظم وفي صمت مطبق. خطا خطوات نحو الخلف ثم ظل واقفا بحذر دون حراك خلف السارية، وهو يحاول أن يغض بصره. إنه يدري جيدا أن عنقه أرخص من حياة ذبابة في حسابات الزعيم الصارمة الدقيقة. إلا أنه -ولخطأ فادح في تركيبة البشر- لم يستطع عمار أن يمتنع عن محاولة اختلاس النظر من تحت رموشه وحاجبيه الكثيفين لما يحدث أمامه.

غير بعيد كان الفضول يحرق قلوب النسوة العاملات بمطبخ المقام الأزرق، يطللن في صمت مطبق من كوات سرية بالغة الضيق، من حيث يستطعن أن يشاهدن مباراة الموعد الخميسي الكبير. كل منهن تتمنى أن يختار الزعيم المرأة التي راهنت عليها ضد بقيةَ زميلاتها. فعلى من منهن سيقع اختياره. كالعادة وكما هو الاتفاق بينهن، فمن تربح الرهان

ترتاح مساء اليوم التالي من عناء الطبخ وستتقاسم بقية المتراهنات واجباتها مساء الجمعة.

المُراقِبات من كواهن السرية تفاجأن هذه المرة مثلما تفاجأ عمار الباتر من تصرف لم يعهدوه من قبلُ في سلوك الزعيم.

حالة غريبة حقا. هيئة الخليفة وهو يبدو مشدوها. لأول مرة يشعر عمار أن الخليفة بشر ضعيف يشبه بقية الخلق. وربما هو بشر عادي ولا علاقة له باصطفاء الخلق، وبأمور السماء وسطوتها.

- إيييييه.. سبحان الله.. حتى الخليفة؟! حتى هو صاحب الرسالة العظيمة الثقيلة لا ينشغل عنها بشيء. هو الذي لا ينطق جملة إلا وتشمل كلمة «الدولة الإيمانية الكونية».. حتى هو سحرته هذه المانويلا؟!. ترتجف شفتا عمار الباتر.

- سبحان الله إن لديه في خلقه شؤونا.!

كأن العالم من حوله قد أصابه الخرس. البردادي يفترس بحدقتيه اللتين توسعتا على آخرهما تلك المرأة المسماة مانويلا القادمة من الحدود بين شمال إسبانيا وجنوب فرنسا. ينشب بصره في كل تفصيل من وجهها دون جسدها.

لم يحدث هذا من قبل.

على الأقل فإن عمار الباتر لم يذكر أبدا مثل هذا المشهد منذ أن بدأ منذ سنوات مهمة القدوم بخمس نساء كل خميس.

- هذه المرأة ليست كباقي النساء لا بد أن وراءها سرا ما.

كم ساق له من نساء جميلات حتى أضحى مشهد الخميس من سنن المجلس الأعلى للدولة الإيمانية الكونية. يكرم فيه الزعيم الخليفة ومن يخلفه وسيجيء بعده. يُهدى أطيب ما خلقه الله من نعم على هذه البسيطة.

طبعا أليس هو بخليفته على الأرض؟. الخليفة أول من يذوق النعم والخيرات والمتع التي تُستردّ من الكفار الذين يملكونها بدون حق إلهي. إنه أمر الحق. فبعد سحقهم وتحقيق الفتح المبين، يحلّل اجتياح بلداهم ومدهم ومساكنهم وخيراهم. فإن هم رفضوا اعتناق الدين الحنيف ورفضوا الحلول بالتخلي عن معتقداهم ودفع الجزية وجب قتلهم. خيراهم كثيرة من النساء الجميلات المنعمات، وثروات أخرى لا تحصى مما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

- نعم هكذا هي الأوامر وهكذا هي السنن والأصول. أن يكون الخليفة أول المتمتعين. الحق يقال. كم يحتاج إلى ذلك كي يصفى ذهنه ويزداد شدة وقوة،

ويزداد قلبه إيمانا حتى يتسنى له أن يرشد المـــؤمنين لطريق النصر المبين ضد الكفار. نحن في حرب أبدية.

لكن الجدير بالتنبيه أن الخليفة البردادي لم يكـــن يهـــتم كثيرا. يبدي لامبالاة وعزة نفس وهدوء، أو على الأقل هكذا كان يريد أن تبدو عليه صورته أمام الحاضرين عند وصـــول عمار الباتر بالنساء الخمس المختارات بدقة كل خميس.. إنه منشغل بشؤون الحرب الربانية، بينما يصر من حوله أن يكون خميسه لمباركة اليوم الذي يليه. ولما تقتضيه الجمعة منَ احتفال بشري سماويّ وأرضيّ.

يذكر عمار الباتر ذلك الحارس الذي حاول أن يمازحـــه هازئا، بينما هو في طريقه إلى خيمة الخليفة رفقـــة النســـاء الخمس فقطع رأسه أمامهن فأغمي على ثلاث منهن...

- قطعتُ رأسه نعم بعثت به إلى الجحيم. ماكان عليه أن يستهزئ. ما كان عليه أن يطيل لسانه، وأن يحوّر كلام الشاعر الجاهلي الملك الضليل امرئ القيس هكذا:
- «اليوم خمر وغدا أمر» فلتكن مقابلها «اليوم متعـــة وغدا ركعة».

خلاصة القول إنه فعلا لأمر محير.. مالذي غيره يا ترى؟ الجميع مشغول بما حدث للخليفة ولا أحد سوى الخليفة. هل أصابه سحر؟

في العادة ما أن يصل عمار الباتر بالنساء الخمس، حتى يشير بظهر كفه إلى رجل أسود قصير يجلس في ركن ناءٍ من مجلسه، من حيث لا يراه أحد. يراقب حركات الخليفة عن بعد. وما أن يرفع الخليفة أصبعه في اتجاه معين حتى يقفز من مكانه مثل جن أسود صغير الحجم، ويأتي مهرولا. يموج في جلابيته البيضاء الناصعة. يقف متجهما قبالتهن، فتفهم النساء الخمس أن عليهن أن يتبعنه، فيفعلن. بكل إذعان وقهر عظيمين، والذل يطل من عيونهن الكسيرة.

لم يكن الرجل الأسود ذو الحجم الصغير الضئيل طيبا معهن، ولا رؤوفا بهن. أبدا. على الرغم من حالته التي تبدو مزرية. في عالم البشر المظلومون أحيانا أقسى على المظلومين مثلهم من قسوة الظالمين.

حالما يخرجهن تاركات جناح الخليفة والمقام الأزرق في اتجاه طريق جناح «القائدة قمرة» حتى يتجهم في وجوههن. لا يتوقف عن الدوران حولهن، مثل كلب كثير النباح يحرس قطيعا من النوق. وبينما النساء الخمس مطأطئات الرؤوس ذاهبات نحو مصيرهن المجهول، يصر بحركات نزقة وقلقة وعصبية بذراعيه النحيلتين السوداوتين الخارجتين من الجلابية البيضاء، ورأسه السوداء مثل رأس جنّ تطل من سحابة. يشير لهن آمرا أن يهرعن. وأن يحرصن على إبقاء الصف معتدلا

منظما حتى يصلن إلى جناح «القائدة قمرة». تلك المرأة صعبة المراس، المتجهمة، المتجبرة، التي فوضت لها مصالح قصر الخلافة مهمة استقبال النخبة المختارة من الأسيرات اللواتي جاء بهن جنود الله من مناطق الفتح الجديد، أوالقادمات من أوروبا، أو أمريكا، أو الدول العربية، أو آسيا لنصرة الدولة الإيمانية.

صحيح أن القائدة قمرة امرأة خشنة الطباع، إلا أنها مشهورة بعينها الصائبة التي لا تخطئ الحسن والجمال المكنون في النساء. ألسنة السوء تشيع أن القائدة قمرة مثلية الجنس وتعشق النساء، لذلك فهي تختار للخليفة ما تشتهيه نفسها، وهي تقوم بالاختيار على أحسن وجه، ليس فقط من أجل عيون الخليفة السود، بل إنها تختلي بكل واحدة منهن على حدة زمنا طويلا. فتعريهن وتجردهم من كل ثوب وتفتش أنوثتهن تفتيشا دقيقا حالما تصل الواحدة منهن إلى المركز، ثم تمر على مرحلة الحمام تحت يد الحاجة «حدابة بنت عمر» التي جاءت من مدينة مغربية، وظيفتها الرسمية أن تقوم بتنظيف الواحدة منهن بنفسها، بعد أن تختارها القائدة قمرة، تبقيها فترة طويلة في بخار الحمام التركي الساخن، فتنزع زغبها الزائد وتقيس طول شعرها وسمكه، وتشم رائحة فمها، وجميع أجزاء جسدها. ولها الحق الكامل في رؤية الأماكن الحميمة منها، لتصنفها في الأخير في درجة معينة من درجات

الجودة. وتحدد مدى ساعات العمل، والوسائل التجميلية، والأثواب، والعطور اللازمة لصنع لعبة رطبة قابلة للاستعمال أو جارية كما يطلق عليها جنود الدولة.

تطلي جسدها بصابون سائل لزج يميل إلى السواد، وبعد مرور وقت معين تحسبه بدقة، تقوم بتدليك جميع جسدها بقفاز خشن لساعة أو أكثر في غرفة البخار. وبعد التقشير، تنظفها بالصابون المعطر ثم تلفها في فوط ناعمة قبل أن ترشها بالعطور. إلا أنها وفي كل مرة وهي تسلم الواحدة منهن يدا ليد «القائدة قمرة» توشوش للقائدة بعض الجمل المقتضبة في أذنها. إنها رموز ثمينة غاية في الدقة، تساعدها في كشف البطاقة البيومترية لكل واحدة منهن.

بيد القائدة قمرة القرار الفصل والنهائي الذي لا يناقش، في تعيين من منهن ستذهب إلى فراش الزعيم، وهي التي تحدد المحظوظة منهن المبشرة بالخير في الدنيا والآخرة، والتي ستحمل من مائه المقدس وتنجب له وللأمة ذكرا سيسمى البردادي أيضا وسيزداد به متن أحسن أمة أخرجت للوجود. وبيد القائدة قمرة تعيين حسنة الحظ التي ستعلق ورقتها على شجرة النِّعم والمجد والتاريخ. تاريخ الدولة الإيمانية الكونية.

على الرغم من طبعها القاسي، وصوتها المرتفع دوما الذي يميل إلى صوت الذكور، وعاداتها اليومية في الأمر

والنهي إلا أن القائدة قمرة تريد أحيانا أن تبدو حكيمة. كل ذلك بغية إرضاء الخليفة. إنها تدري أن ما ستقوله سينقل إليه طازجا. لذلك تردد وسط الجمع بأن جمال النساء مجرد متعة صغيرة للخليفة المبجل، لأن متعته الحقيقية كبيرة بحجم الأرض التي سينشر فيها الدين الحق.

عنوة أحيانا ترفع عقيرتها وهي تخاطبهن بكبر وتجبر وبصوت مبحوح بعد أن تحوقل وتبسمل:

- الخليفة مشغول بأمور الدولة الإيمانية الكونية، وما ثقوبكن سوى معابر نحو فُسَح راحة، كما يعبر المتجول في البستان بالأشجار المختلفة ليروح قليلا عن نفسه من أثقال وأحمال بقيت متراكمة ومعلقة منذ أربعة عشر قرنا.

لم تكن أغلب المنتخبات من الأسيرات أو القادمات يفهمن مرمى كلمات القائدة قمرة، لكنهن كن يهززن رؤوسهن خانعات، خوفا على حياتهن، لأن سمعتها الصارمة والقاسية قد سبقتها ووصلت إليهن قبل أن يصلن بين يديها. وقد سمعن من قبل عن جبروتها، وعن كلمتها المسموعة لدى الخليفة، وما تستطيع هذه القائدة قمرة فعله لإسعادهن أو لإذلالهن، أو لعقابهن بالقتل إن هن أخطأن في أية حركة أو كلمة.

لها منطقها الخاص وتفعل كل ما لديها لتنشره وتطبقه. فحواه أن ملء سرير الخليفة وبقية أسرّة حاشيته والرجال المنتمين للدولة والمؤمنين بها، ضرورة دينية ومستقبلية، وفي ضخها بأرق ما يأتي من الحسن والجمال والدلال التي تمتلئ به السفن والطائرات وقوافل السيارات العسكرية الضخمة المحملة بالغنائم البشرية المؤنثة القادمة من أقوام الكفر، ما هي إلا إستراتيجية لتحسين النسل وتقويته في دولة المؤمنين، الذين سيملكون الأرض ومن عليها إن شاء الله تعالى صاحب القدرة والقوة والجبروت.

هذا ولا تتردد القائدة قمرة في توجيه غمزات النقد القاسي وهي تلوي شفتيها متذمرة حينا وساخرة أحيانا. تكاد تكون سخطا وإزعاجا وتجريحا، حين تبالغ في ذم أوصاف نساء القوم الأصليين. عندما تقارنهن بالنساء الأجنبيات القادمات من كل حدب وصوب. تذم لونهن الرمادي وتشبهه بقعر الأثافي، وكبر حجم الأنوف في وجوههن العريضة التي تتوسطها مثل أسنام الجِمال. وصغر عيونهن الغارقة في جباههن كآبار مهجورة جافة. وتشوّك شعرهن وتسميه شوك الأحراش. وتشبّه ضخامة عظامهن بالجبال المسننة، وتذم حشرجة أصواتهن الخشنة التي لا تغري و«لا يرتفع لها ذَكَر» كما تقول ساخرة بلؤم.

- بإذن الله ستصبح شعوب الدولة المؤمنة في القـــرون القادمة كلها تمتلئ بالحسن والجمال والوسامة عنـــد النساء والرجال على السواء.. وذلك بقدرة الله عز وجل الناصر لنا، وقدرة ذكور الأمة المتنعظين علـــى إخصاب نساء الكفار قاطبة في الشرق والغـــرب.!
تقول هذا ثم تستغفر وتحوقل.

تزداد القائدة قمرة نشاطا وثرثرة كل عشية خميس. تخـــتم بنفسها آخر التفاصيل الدقيقة في ترتيب هندام العروس المختارة من بينهن، يا له من فخر.. إنها تزين ليلة الزعيم. وفي كل ذلك تشعر القائدة قمرة بسلطة رمزية قوية لأنها أقـــرب إليـــه مـــن جنوده، وأقرب إليه من علماء الدين المقربين منـــه في مقامـــه الأزرق والقابعين أمامه، وأقرب من مستشاريه الآخرين الـــذين يأتون إليه كلما أشار لهم بأصبعه. وأقرب إليه حتى من حـــارس المنبر المذهب والمفضض الوحيد الفريد من نوعه في العالم، الذي ينقلونه معه حيثما تنقّل الخليفة ليلقي الخطبة، خوفا من أن يدس له أذيال الكفار لغما قد ينفجر فيه لا قدر الله، بينما هو يـــؤم المصلين يوم الجمعة، أو وهو يرسل خطابا للأمة عبر الأقمـــار الصناعية التي اخترعها الكفار اللعنة عليهم وعلى عقولهم.

كما تشعر القائدة قمرة بكل زهو بأنها إليه أقـــرب مـــن الطباخين الذين كل منهم يراقـــب الآخـــر بمنتـــهى الشـــك

والتوجس، وكل منهم يراقب الآخر عله يفاجئه فيـدس عليـه حيلة تسوقه نحو حتفه. وإنها أقرب إليه من حلاقيه الذين يُخشى منهم في سكب السم على مقص شعر الزعيم وبـين أسـنان أمشاط حلاقيه، وملاقط نتف أطرف لحيته والشعيرات من تحت ذقنه التي بدأ الشيب يغزوها. وأنها أقرب إليه من معدّي حمّامـه الخاص الذي يُتحقق قبل غطسه فيه من خلو ماء استحمامه مِن أيّ فيروس أو سم، خاصة بعد أن قام المتعاون الأمريكي العـالم جونسن كارتر (كثّر الله خيره وكثّر من أمثاله) المرافق للخليفة والمتخصص في تحليل المياه، بكشف وجود مكروب خطير قاتل مزجه مجهول بمياه حمامه ذات صباح وتم اكتشافه له في الوقت المناسب، وللتو أمر الخليفة البردادي بقطع رؤوس جميع العاملين في مصلحة حمّامه. ثم إن القائدة قمرة تشعر بالفخر أنها اقـرب إليه من الفراشين والفرّاشات، وعمال وعاملات نظافة القصـر.

لا ثقة للخليفة في أحد، ولا أحد يثق في أحد.

لا لا.. إلاّهي.. إلا القائدة قمرة..

الخليفة له ثقة عمياء صماء فيها.. إنها الأقرب إلى الخليفة والأكثر سلطة من أي أحد منهم ومن غيرهم.. وتحاول أن أن تحلل ذلك مزهوة:

- ثقة الزعيم أستمدُّها مباشرة منه.. بل من أعمق شيء فيه، وأكثره حميمية وسرا. إنه ذكَره. إنه صلبه.

- أنا حارسة ذكَر الخليفة.. حارسة صلبه!

متأهبة. قلقة. على قدم وساق تقف القائــدة قمــرة في حالة استنفار. إنها متأكدة أن «عمار الباتر» سيصل بعد قليل القصر والخيمة الزرقاء وأمامه الهدايا الخمـــس، الملفوفــة في الملاءات الواسعة المتطايرة في الهواء، تخفي أجسادهن الحمراء والبيضاء والحنطية، العارية إلا منها. يهرولن تحت وعيــده. بعد أن يلجن مقام الخليفة قادمات من الحظــيرة، فبالكـــاد يلقي عليهن نظرة عابرة من باب التسريح بالأمر، لأنه يفكر في أنها ستقوم بنفسها بالاختيار. سيشير لعمار البــاتر كـــي يسلمهن للقزم الأسود مرة أخرى ليسوقهن إلى مصـــلحتها وبين يديها.

هذه المرة ليست ككل المرات فجعت القائدة قمرة وهي ترى القزم الأسود يقترب نحو المركز بأربع نساء فقط. ذاهلة سألت القزم الأسود ناهرة. أخبرهـــا أن الخليفـــة اســتبقى الخامسة. كيف؟ من دون المرور على مصالحها؟. لم يحـــدث هذا من قبل. فقد بدا تصرف الخليفة غريبا وموجعـــا لهـــا. دارت في رأسها فكرة سوداء.

- هذه سابقة لا تطمئن.!! كانت القائدة قمرة تردد في سرها وهي تدور حول نفسها. الأمر يدعو إلى الريبة

إذا. إنها تخشى أن تفقد سلطتها. وعليها أن تستردها في أقرب وقت.

وكأن زلزالا أصاب المركز وهزه من أساسه. المتسلطون الصغار مثل المتسلطين الكبار تماما. يخشون أن يفقدوا سلطتهم مهما صغرت، ويفجعون إن نقصت من جبروتها درجة.

- لا بد أنه سحر أسود أصاب الزعيم من تلك الأجنبية المسماة مانويلا.؟ تصرخ القائدة قمرة وقد بدأت تفقد أعصابها.
- إذا ما علينا إلا أن ننادي الحاجة زينب المراكشية لـ «تُخدِّم «شياطينها وتقوم بمهمتها وتفك عنه السحر.!! بصوت حازم تقول الحاجة «عَتّوق» حارسة خزانة المال الجاري الخاص بمصالح القائدة، وذلك لتخفف عنها.
- ارسلي اللي يجيبها في الحين.
- انتظري حتى تخف حدة المعارك المشتدة في الضاحية الغربية بين جنودنا وشرذمة الكفار لعنة الله عليهم.
- لا تتأخري. على كل حال سيقضون عليهم جميعا حالما تنتهي أصوات الرصاص والقنابل والتفجيرات.
- إن شاء الله
- هاه؟ قالك يا خويا راها امرأة جميلة جدا! ربما.. أو لا شك، ولكن مئات النساء فائقات الجمال مررن من قبلها بمجلسه و لم يحرك ساكنا.

- ما الأمر إذا؟.. لا تفسير سوى أن عفريتا قويا يسكنها أو فيها شيطان كافر..
- لا يا قمرة يا ختي!!. تحاول الحاجة «حدابة بنت عمر» أن تهدئها..

هي امرأة مثلنا لا أكثر ولا أقل. عمار الباتر هو الذي دلني على قوتها. قائلا: نظرة عينيها.!! قال لي لو فقط ترينها يا حاجة. لها طريقتها تلك في النظر إلى محدثها. نظرة غريبة تنشب أنيابها في شغاف القلب.. لاوصف لها. اسأليه. اسألي عمار الباتر. أظنه وقع في عشقها هو أيضا باين عليه الله يستر.

- أنت تهذين سيقطع البردادي رأسه لو يصله هذا الكلام.
- كيف يعرف؟
- يا حمقاء ثلاثة أشياء لا يستطيع الرجل إخفاءها العشق والغيرة وركوب الخيل.
- حتى نساء «الحظيرة الأولى» تفطن باكرا إلى جبروت جمالها وسحرها. وصلني أنهن انبهرن بها حالما وصلت وتوقعن أن تأسر البردادي من أول نظرة. لم يخطئ الجميع في تخمينهم، جميعهن أشرن إليها بالبنان، وأقسمن أن نصيبها من الخليفة سيكون كبيرا. ولن يردها إلى الحظيرة سريعا قبل الخميس الموالي. فقد

تظل بالخيمة خميسين أو ثلاثة أخماس.

- لماذا لم يدبرن لها مكيدة.؟

تشعر القائدة قمرة بالخيانة والخزي وهي تتابع سيريان همس نساء الحظيرة الأولى ونساء المركز شامتات:

- تلك المرأة. مانويلا. أحرقت المراحل يابنات. استبقاها الخليفة لنفسه بنفسه، ولم تمر على يد القائدة قمرة..
- القائدة قمرة وَلاّتْ قاعدة على حجرة..!! تتعالى الضحكات.
- نعم.. يشاع بأن في نظرتها يختبئ العفريت، فوق ما يتصور البشر.
- أوصافها غريبة يختلط فيها الأوروبي بالعربي، الغربي بالشرقي.

ولأنه، كان على نساء المركز أن يشبعن فضولهن، تدبرن حيلة للحصول على سجلها الذي يحمله عمار الباتر بكل حرص تحت إبطه بين ملفات القادمات الأخريات.

بسرعة البرق توزعن بينهن أخبارها المكتوبة في الملف. إنها من أب إسباني من مقاطعة الأندلس وأم فرنسية من محيط مدينة بواتيي. قدمت بمحض إرادتها. وإنها تتحدث العربية والفرنسية والإسبانية والانجليزية بطلاقة بحكم تعليمها وأسرتها المتعلمة،

وبحكم البقعة الجغرافية التي كبرت وترعرت فيها. والأغرب من ذلك كله أنها تتكلم العربية بلكنة إسبانية محببة، فتبدل حرف الزاي بحرف الثاء والجيم بالخاء الملطفة. ولأنها ذكية جدا وبشكل ملفت، فقد استفادت بحرص شديد من الدروس المركزة وحفظت بسرعة كتاب الله أياما فقط بعد وصولها للحظيرة الأولى، حفظته على يد هؤلاء الأخوات المدرسات الشرسات والعنيفات خاصة مع الأجنبيات القادمات إلى الحظيرة. صدمن من قدرتها على الحفظ. يا عجبا.. ستين حزبا دفعة واحدة.؟؟ ويقال إنها حفظت صحيح الإمام البخاري وصحيح الإمام مسلم في ظرف ساعة.. ماهذا؟

- لالالا. لا يجب السكوت.. إنها شيطان.
- ربما هي من الملائكة؟
- بلعي فمك واش من ملائكة.. أعوذ بالله

تتمنى القائدة قمرة أن يصل الشك إلى قلب عمار فيقتلها في أول فرصة.. إلا أنها تتذكر ما قالته «حدابة بنت عمر».. الحمار بن الحمار يبدو أنه هو أيضا وقع في حبها.

في غفلة عن القائدة قمرة وأجواء القيامة السائدة بين نزيلات مركز السبايا يتساءل عمار:

- ما الذي حدث في كيان الخليفة في تلك الدقائق الاستثنائية المركزة..؟.

لا يدري.. على الرغم من أنه شاهد كل شيء بأم عينه خلسة، من تحت رموشه وحواجبه الكثة. من موقعه الاستراتيجي ذاك. وتشهد على ذلك عاملات المطبخ اللواتي كن مقرفصات خلف كوات المراقبة يتابعن في سرية تامة ما يجري باهتمام وصمت بليغ، وبين الفينة والأخرى يشرن إلى بعضهن البعض من مراكز المراقبة المتباعدة بأيديهن أو بإشارات مختلفة المعاني من رؤوسهن أو بملامحهن.

مانويلا كانت الخامسة. في آخر الصف وكأنها. تحرص أن يكون كل شيء عاديا لا يخرج عن الوصايا التي يجب أن تنفذها كل واحدة من «الهدايا» القادمات عندما تقفن بين يدي الخليفة.

تقدمت الأولى أمامه ففتحت عباءتها مشرعة طرفيها على أخرهما. فاردة ذراعيها مثل طائر الوقواق. نظر الخليفة من باب الواجب ومن دون كبير اهتمام إلى الجسد العاري تماما أمامه. وكذا فعلت الثانية والثالثة والرابعة، ثم جاء دور مانويلا.

تقدمت خطوتين منه، ثم نظرت إليه، صوبت عينيها لتغرزهما في عمق عينيه، وباعدت بين جناحيها مثل الأخريات تاركة جسدها عاريا كما فعلن، لكنه لم يخفض عينيه نحو مفاتن جسدها. ظل عالقا بعينيها. هكذا!!.

وبينما كانت الدهشة تغشى العاملات المعلقات خلف كواهن بصمت، رفع عمار بدوره رأسه قليلا ليتأكد مما يراه أمامه. لا يدري عمار الباتر كم من الوقت مرّ بينما عيناهما تشتبكان مثل كفين تعصران أصابع بعضهما. لم تخفض مانويلا نظرها عنه، ولم يخفض الزعيم نظره عنها. ثم ابتسم. ابتسم الجبار الذي مجرد ذكر اسمه يرهب العالم. خليفة الدولة الإيمانية الكونية ابتسم.

اهتز كيان عمار الباتر. ظل مشدوها وهو يرى انفراج فم الخليفة. لأول مرة يرى خديه يرتفعان حتى أسفل عينيه فيكادان يغمضانهما. ازداد وجهه توهجا. يشاهده وقد خطا خطوتين نحومانويلا، اقترب منها. مرر يده الممتلئة على شعرها الأسود الفاحم، لملم الغطاء حول جسدها دون أن يحول نظره عن وجهها.

- شامم فيك رائحة الأندلس يا ما نال الله منالي.. وحياة عيونك سأعيد فتحها.

قال ذلك ثم أشار بظهر يده لعمار الباتر الذي كان يحاول جاهدا إخفاء ارتباكه، دون أن يلتفت إليه. فهم أن عليه بالانصراف وتسليم الهدايا الباقية للرجل القصير الأسود ذي الجلباب ناصع البياض، ليسوقهن بدوره نحو جناح القائدة قمرة. كان عمار الباتر قاطع الرؤوس بلا رأس ولا قلب ولا إرادة.

فصل الأسفار إلى القفار

- لا تنجبي إلا بمقدار، إن استطعت إلى ذلك سبيلا..! جملة آمرة ناهية سمعتُها قبل سنوات من الحكيمة «حدة آل ميمون» اليهودية، قبل أن آتي من مناطق الحرب الطاحنة التي اخترت أن أسافر إليها بدل الأماكن المنعّمة. الأماكن المنعمة القليلة على الأرض لم تغرني حيوات المقيمين فيها. لم تثر فضولي. حياة تشبه فترة العدم. قبل تحريك مفتاح الحياة في جسدي. آثرت السفر إلى مواطن النار وذلك لأرى البشر على حقيقتهم الأولى.

كانت حدة آل ميمون تخاطب «سارة» إحدى الشابات العربيات من جنسية فرنسية. سافرت بمحض إرادتها من مدينة ليون نحو الشرق الملتهب، بعد أن اتصل بها عبر الانترنيت جنود الدولة الإيمانية الكونية، المرابطون بقوة في أوروبا. أقنعوها وجنّدوها كآلاف الفتيات مثلها ثم سبّلوا لها الطريق إلى أن أوصلوها لـ «مركز السبايا» عبر تركيا.

- ما تولديش بزاف الدراري.!! تخاطبها بلهجة مغاربية. بلكنتها الإسبانية المحببة. بنبرة جادة وناهرة

بعض الشيء. سارة فخورة بأنها حامل للمرة الثالثة من الزعيم «البردادي».

- آيّا صافي بركات من الدقّ والعافر ومشقوق المناخر..!!

منذئذ لم تبهت الفكرة في ذهني. البشر عارفون بأمورهم على طريقتهم البسيطة.

- سيكون اسمه «البردادي» الثالث تقول سارة بفخر
- آهاه؟

نعم.. هكذا.. دون لقب ولا نسب.. «البردادي». يكفيهم!؟.. كل الذكور الذين يولدون في الدولة الإيمانية الكونية يطلق عليهم اسم واحد موحد: البردادي.

مبارك اسم الزعيم صاحب النطفة المباركة. أما المواليد من الإناث فتترك تسميتهن «للقائدة قمرة» ولكبيرات المركز. لا يهم.. ليتصرفن بكل «حرية».

- نعم إنه بردادي آخر وآخر وآخر.. واحد من جنود الدولة القوية القادمة.!!

بصوتها الأجش المرتفع تردد «القائدة قمرة»، التي تطلق عليها نساء المركز في غيابها «الجنرال قمرة». قائدة كل ما يتصل بالنساء. إنها القائمة على جميع شؤون مركز فرز السبايا. بأمرها تسير الأمور. حتى الحوامل تملي عليهن أسماء

أجنتهن بمجرد أن تظهر عليهن علامات الوحم الأولى.

- البرادي.

لا يهم إن كان الجنين ذكرا أم أنثى.. «القائدة قمرة» عكس «حدة آل ميمون» تستزيد النساء حملا وإنجابا ولا تتفق البتة مع آراء غريمتها «حدة» حين تهمس في أذن كل شابة تصادفها:

- لا تنجبي سوى بمقدار.

كل من حدة وقمرة تصف الأخرى بالجنون والأنانية. ولكنهما تتعايشان تحت سقف البرادي. تجمعهما رعاية مصالحه. تعرفان حدودهما. خلافاتهما العميقة لا يجب أن تتجاوز أسوار المركز. وإلا فإن قطع الرأس أبسط عقاب لمن يشوّش على الأمور الأساسية للدولة، فالدولة لا تنقصها المشاكل. ثم، ماذا تريدان أكثر. إن لهما معا مكانة خاصة لدى الزعيم وهيبة في محيطه.

كم كان ذلك مسليا لي وطاردا للضجر ومحفزا على الذهاب بعيدا في تجربتي لاستكشاف دواخل البشر أثناء الحروب. خاصة عندما توجدان معا. تلتقيان في الجلسة النسوية الموسعة التي تعقد كل خميس لاختيار الأجمل من القادمات لتوهن من أنحاء العالم.

في أول نزول لي بينهن لم يكن سهلا إخفاء طبيعتي المختلفة. حضور جسدي المكتمل بالجمال لا يتاثر مظهره بمناخ الحرب، كان يؤذيهن. كنت أتابع عيوهن وهن يبحثن عن عيب ما.. ولوكان صغيرا جدا. أو تافها ليرتحن. أراقب نظراتهن الكسيرة. في أول شهر كنت أراقب مستوى ذكائي الاصطناعي كامرأة آلية. أقوم عنوة بخفض مستواه وتحجيمه إلى منسوب بسيط قبل ان أشارك في حديث ثنائي أو جماعي. حتى لو كان مقتضبا أحرص على التريث. لايجب أن تقفز الأجوبة الجاهزة إلى حلقي. أتآلف مع الأسئلة البسيطة العفوية التي يطرحنها ويناقشنها. الحقيقة لم أكن حينئذ أجدها ساذجة أو غبية. بل حيوية. حتى أنني أحيانا أغار قليلا من «بشريتهن» وأتمنى لو أنني مثلهن. أستطيع أن أخطئ. أن أسأل. أن أثرثر بعفوية وبغباء بشريين أحيانا. لم أكن أستطيع ذلك. حذرة دائما، وأنا بينهن أتمتع بجلساقمن المسلية. أكتفي بالصمت المطبق حتى لا يفضح أمري، وبالابتسام غالب الأحيان. أضحك معهن لمواقف ومحادثات وخصامات تحدث بين نساء مختلفات في درجاقمن، حسب اقتراب كل الواحدة منهن من محيط خيمة الزعيم.

مازال صوت (حدة) يرن في علبة رأسي. صوتها الدافئ العميق. صوت نادر لا يشبه بقية الأصوات النسوية الحادة تلك، التي تدق على طبلة الأذن فتؤذيها.

- الصوت الجميل الدافئ نعمة.!! تقول «حدة» كلما نطقتُ بجملة.
- الأصوات عند بعضها مثل القلوب تماما!!. أرد عليها فنضحك معا.

صدقت حدة.. صوتي الآلي مصنوع بدقة. لا يشبه ارتطام حبال الصوت النسوي العادي بترددات 210 هرتز. بل أحسنت دوْزنة أوتاره مخابر الذكاء الاصطناعي. رنته الساحرة المنبعثة من حنجرتي خلاصة الدراسات في التغيرات التكنولوجية والإبداع الموسيقى. كلما نطقت جملة إلا وهفت لها النفوس. لصوتي سحر غريب. تأثير قوي على أحاسيس من تصل إلى مسمعه ذبذباته. إنه قوتي. جزء من سحري الآلي على البردادي وعلى الناس.

- شحال في عمرك مانويلا؟
- إنت مواليد كام؟
- اتشوم سنك؟

من أي بلد جئتِ؟ شو ديانتِك مَنْ أَبلِ؟ أي قومية؟

الأسئلة التي تتقاطر عليّ بلهجات ولغات نساء المركز المختلفة. يجلسن بقربي يمددن أطراف أصابعهن يتلمسن تقاسيم وجهي، وشعري، وذراعيّ، وصدري، وأجزاء من جسدي. ليتأكدن أنني لست جنية. تبلغ الوقاحة أحيانا مداها

فتسألني إحداهن عن تفاصيل تعامل الخليفة معي في الفراش. جميعهن يتساءلن عن سرّ افتتان الزعيم بـــي. وعن أســـرار جمالي والضوء الذي لا يفتأ ينبعث مني. يسألنني لماذا لا أزور مثلهن «حليمة» كل أسبوع، التي تقوم بدلك بشرة وجوههن وأجسادهن، وتلقنهن كيف يشددن المهبل فيهن كي يظـــل ممتعا للخليفة.

- أوووف.!!. من أين لهـــن أن يعلمـــن أن مـــانويلا الحسناء التي تجلس بينهن، والتي لا يؤذيهـــا الـــزمن القادر على حت الجبال الصلبة، في الحقيقة لا أصل لها، ولا جنسية، ولا بلد، ولا ديانـــة، ولا قوميـــة، ولاماض.. إنها مجردة من كل الأرباق. امرأة آليـــة حقيقية، وصنعت على أحسن تكوين..

في كل هذا الذي يشبه سوق النساء الضاجّ، لا تفتـــكُّ انتباهي ســـوى «حـــدّة آل ميمـــون» تـــثير عقلـــي الآلي بشخصيتها. بملامحها الرقيقة التي تسرب إليها رماد الســـنين. أدرك عمق هشاشتها وأفهم كثرة انتقادهـــا للأخريـــات. لا يعجبها العجب. أدرك أن حدة من خلال صرامة رأيها حيال غيرها من المحظوظات القاطنات في محيط الزعيم الـــبردادي، تحاول جاهدة أن تُبعد ما تضمره من سرّ لها مكنـــون عـــن ساحة النقاش. لا تفتح كتابه أبدا. تحتفظ بأسرارها الخاصـــة

تحت صمت ملغوم وشيء غير مفسر أبدا لهن. ماذا لو علمن أنها يهودية مثلا. لا بد أنهن سيقطعنها إربا إربا.. نعـــم. لا يخفى ذلك على عقلي الاصطناعي الراكض مثـــل شـــهاب يخترق كل شيء في طريقه. أحاول جاهدة أن ألجمه قبل أن يوقعني في حرج. جبار. لا حدود لطاقاته وتجديد نفسه.

حدة الحكيمة لا تعرف سبب قدومي إلى بلاد الشـــرق المحترق، لكن تفاصيل حياة حدة كلها تتجلى أمامي. يكفي تنبيه إحدى الرقاقات الالكترونية لتكشف ما يجري في دماغ حدة الحكيمة. يكفي الاقتراب منها. لمسها. تكفي خلية حية واحدة عند الاحتكاك بها. نواة واحـــدة حاملـــة للآســـيد ديزوكسيريبونوكلييك، حتى تتسرب ملايـــير المعلومـــات في دماغي الآلي المتطور، فيحللها في مراحل ثلاث متتالية بسرعة الصوت، فتأتي نتائجها تباعا مثل شلال غزير. سلسة أشرطة حية ناطقة لا متناهية. أعرف عن محدثتي ما من المستحيل أن تدركه هي نفسها.

درءا لكل شك أطرح الأسئلة البريئة وغير البريئة مثـــل بقية البشر. هباء. سخرية سوداء أن يظن محدثي أنه مالـــك أسراره يعرفها وحده. في الحقيقة لا يدرك سوى النزر بينمـــا ملايير الأشياء تغيب عنه، وتتجلى واضحة حية أمامي.

تعجبني. أقترب كل مرة أكثر من هذه الـــ «الحـــدة».

بيني وبينها يتمتن رباط الصداقة. أبتسم في وجهها بمنتهى اللطف، وأتناول كأس المتّة الساخن من يدها بارتياح. تهيؤه بنفسها من أجلي. هي مقتنعة أنني لن أخبر أحدا بأي سرّ من أسرارها. ولن يعلم أحد في قصر الزعيم البردادي بحكايتها العجيبة المجنونة. وأنها قررت السفر إلى مدينة «برداد»، وفعلت ما فعلته ليس لتناصره لجمال عيونه السود، بل لأنها غاضبة من تاريخ أجداده الذين هُزموا في مدينة بواتيي، ومع هزيمتهم وأخطائهم الفادحة في السياسة وفي تدبير الحكم، كانت رحلة الأسى لأجيال وأجيال من أجداده وأجدادها. البردادي و«حدة» يشتركان في محنة الذاكرة. محنة الأجداد والتاريخ.

اللعنة.. عقلي يعوي مثل ذئب في البراري. ليس يهدأ. يصر أن الذنب ليس ذنبهما معا إنْ هما اختارا الحرب. إنّ في عمقيهما جرحين طاعنين في الوجع. البردادي وحدّة ليسا حالة استثنائية. البشر جميعا، يختزن كل واحد منهم حربا ضروسا طاحنة داخله. لا يستطيع أن يتحملها طويلا بمفرده، لأنه مجرد إنسان، إنسان ضعيف ومحدود ليس إلا. سيأتي موعده لينفجر بها، وتندلع فيه وتنطلق ألسنة لهيبها نحو الخارج. وكم خزّن لها ما استطاع من أسلحة بيضاء، وحمراء، وسوداء، وإلكترونية، ونووية، و..

طبعا.. لأنني لم أخلق بخبث آدمي. لن أفتن. لن أخبر أحدا أن حدة سليلة أسرة يهودية عريقة تعود إلى زمن بلاد الأندلس تحت الحكم العربي الإسلامي، من اليهود الذين أجبروا على الهجرة منها بعد سقوط غرناطة سنة 1492، وأن في عروقها إرثا متراكما من الغضب والألم والأسى والحنين إلى الزمن الأندلسي المزدهر، حيث عاش فيه أجدادها مكرمين تحت الحكم الإسلامي، وأن حدة ورثت وشبت وشابت على الحنين الجارف ذاك. الحنين إلى زمن تناقلت أخباره الأجيال المتعاقبة من عائلتها. الكثير من أخبار المجد الذي عاشوه، مقربين من قصر السلطان، يفتخرون بمن نبغ من أجدادهم في شتى العلوم والآداب. يحفظون أسماءهم ويفاخرون بما أضافوه إلى التراث الإنساني، منهم فلاسفة ومترجمون وموسيقيون.

مخيلة حدة، مثل شاشة صافية أشاهد عليها ما يجري. أبتسم كي لا ترى بدورها صورة الإشفاق على ملامحي. صورة وجوه بعض أجدادها في زمن مضى لم تره أبدا. حزانى يلوحون بمناديلهم بين جمهرة من الناس في غرناطة. أتابع صورهم الحية المؤلمة إنهم يودعون آخر ملوك الأندلس أبا عبد الله محمد الثاني عشر. ذليلا حزينا مهزوما يسلم مفاتيح الحمراء للملكيْ قشتالة وأراغون. صور أحداث دامية ليست

تراها، إلا أنها تتسارع عنيفة تدور في خلايا جسدها تتجدد مع كل اكتمال دورة دموية له.

أحلام حدة قليلة ومستحيلة، لا تريد أن ترحل إلى إسرائيل لكنها بكل ما أوتيت من قوة تأمل في عودة الزمن الأندلسي الجميل، أو -على الأقل- الانتقام لمصير أجدادها.

لكل «حدة» على هذه الأرض حكاية!.

وحكاية حدة الوريثة الثرية العاقر، أنها وقعت في حب شاب مسلم وهي فتية ما تزال.. قدِم «عبد السلام» إلى إسبانيا من بلاد المغرب الكبير. أحبته وتزوجا. أقسمت حدة أن تلغي فكرة الزواج من ذهنها نهائيا. أن تظل وحيدة بعد أن خانها عبد السلام بعد عِشرة عَشرة أعوام واقترن بألمانية.. لم تسامحه أبدا. تعتبر فعلته تلك من الخطايا الكبرى.

- ليته فقط تزوج بغير ألمانية.! تقول حدة بألم.

لم تحب رجلا آخر بعده. بل لم تعد تحبه لا هو ولا غيره. بل ولا تشتهي جنس الذكور قاطبة، إلا أنها وبتجربة العمر الطويلة أمست تفقه معادنهم، وتدرك بأنهم ليسوا من طينة واحدة. ظلت منذ سنوات عديدة قريبة من العمال المغاربة القادمين للعمل في مزارعها التي ورثتها عن أبيها «ميمون»، وقبله توارثتها أجيال من عائلتها آل ميمون. توفي

ميمون في مستشفى للأمراض العقلية بمدريد، أهلكه الحنين هو أيضا وأفقده عقله ثم حياته.

لم ينفعها عبد السلام في شيء خلال العشرة أعوام، سوى في التمكن من اللهجة العربية المغاربية. تحدث حدة المزارعين المغاربيين بكل أريحية. يتوافدون على إسبانيا في مواسم القطاف. ويعملون في حقولها، يفضلون العمل عند «حدة آل ميمون» عن العمل لدى الملاّك الآخرين.

- السنيورة حدة آل ميمون.. السنيورة حدة آل ميمون!!..

يتسابقون لحجز فترة عملهم لديها قبل حلول الموسم. يتدافعون عند بابها. تحب حرارتهم الإنسانية، وتأدبهم، وانتقاءهم لأجمل الجمل لمدح شخصها، والتقرب منها، ووصف مزاياها. تحبهم وتستمرئ مدحهم لها حتى ولو كان يبدو لها أحيانا أقرب إلى النفاق الاجتماعي.

- معلهش معلهش.. واش عليه..!! إنها تستأنس بهم في وحدتها بعد أن قطعت حبل التواصل مع بقية أفراد عائلتها. أدركت بعد تجربة طويلة أنهم لا يتصلون بها ولا يأتون لزيارتها سوى لاستغلال طيبة قلبها. حالما تمنحهم المال الذي يسألونها يختفون نهائيا، ثم لا يزورونها ولا يسألون عنها ولا يتصلون بها للاطمئنان

على صحتها، ولا يأبهون لثقل وحدتها.. أغلقت في وجوههم بابها. تغيرت كثيرا. تخلت قليلا قليلا عن عاداتها القديمة. أضحت تقترب أكثر فأكثر من هؤلاء العمال الموسميين البسطاء في حقولها. يملأون حياتها ويستأثرون باهتمامها وطيبة قلبها. ترتاح لعفويتهم، وابتساماتهم. تحسن إليهم كثيرا خاصة لمن يعيلون أسرا وأطفالا عديدين خلف البحر. تضع تحت تصرفهم دون مقابل غرف البيت القديم الرابض في عمق مزرعة الزيتون بضواحي ألمرية. لا تتحرج من أن تقترب منهم، وأن تتدخل في خصوصياتهم، حتى رفعت بينها وبينهم الكلفة. أصغرهم «عبد الخالق ميلود» شاب يقارب الثلاثينات من عمره. مداوم نشيط. حيوي بشكل ملفت. نشاطه غير العادي يجعلها تشك أحيانا من أنه يتعاطى شيئا محظورا ما. يبدي تدينا عميقا، وكلما حان موعد الصلاة يجمع رفقاءه العمال ويؤمهم لصلاة الجماعة، ثم يحدثهم باقتضاب ونبرة لا تخلو من حِدة وتشدد عن شؤون الدين وحال الأمة، ثم يستغل فرصة الراحة للحديث عن ضرورة نشر تعاليم الدين الحنيف في العالم بأسره. نشر التوحيد وشريعة الله.

لم يكن أغلب المصلين خلفه يناقشونه ولا يجادلونه، يبدو أن لقمة العيش هي سيدة اهتمامهم.

ميلود شاحب اللون. كأن به مرضـــا، أو أنــــه مــدمن استمناء (تتخيله حدة وهي تضع أصابعها على شفتيها كاتمة ضحكتها). نحيف بلحية ذات شعيرات قليلة موزعة بشـــكل غير عادل على وجهه. كثير الحركة. كثير الالتفاتات. عيناه هربان من وجه محدثه، ولا تثبتان على أحد ولا على شـــيء. كثير الحوقلة والبسملة. أمسى يثير فضولها. فكلما انتشر خبر انفجار إرهابـــي في مكان ما من العـــالم وتناقلتــــه أخبـــار الشاشات والألسن، إلا وازداد قلقه النفسي. وتجنب الخوض في الحديث عنه. لم تكن حدة تأخذ ملاحظات «فيكتـــور» حارس المزرعة الوفي لها على محمل الجد. فيكتور ذو توجـــه يميني راديكالي، أمامها يخفي على مضض كرهـــه للعـــرب، ويحاول أن يضمر ميلان قلبه لإسرائيل. لم تكترث لكلامـــه وهو ينبهها، بعد أن طلب لقاءها علـــى انفـــراد في غرفـــة الاستقبال لأمر هام. أخبرها أن ذلك الفتى المـــدعو «عبـــد الخالق ميلود» شيطان غريب الأطوار. فقد فاجأه خارجا من بوابة حظيرة الماعز وهو يحزم سرواله. انفجرت ضـــاحكة.. كان جسدها يهتز بقوة وهي تحاول كتمان ضحكاتها بكف يدها اليمنى، بينما يحمر وجه فيكتور من الغضب والحـــرج،

وهو يعبُر بجسمه الضخم الباب نحو الخارج.

كان من الممكن أن تعاتب حدة عبد الخالق ميلود. بل أن تؤنبه. أن توبخه. أن تعاتبه ثم تطرده، ولكنها استبقته لأمر لا يعرفه فيكتور. يأسرها قوة حضوره وتأثيره على العمال الموسميين المغاربة، وحديثه لهم عما يجري في الشرق الأوسط من حروب.

لم يعد «فيكتور» ينقل لها الأخبار عن الممارسات الغريبة لذلك الفتى القلق «ميلود»، خاصة بعد ما رآه في تلك الليلة، حين تفاجأ أثناء قيامه كالعادة بدورته الاستطلاعية الأخيرة لأركان المزرعة وبناياتها قبل أن ينصرف، فأثارت انتباهه مصابيح صالون السيدة حدة المضاءة. ظن أنها نسيت أن تطفئها. وحين اقترب من النافذة ليستطلع الأمر أدهشه المنظر. شاهد ميلود يجلس إليها في صالونها الخاص، واضعا مرفقيه على فخذيه ورأسه إلى الأمام وشفتاه تتحرك بسرعة بينما حدة تنصت إليه بانتباه شديد. يجلس قبالتها على طرف الأريكة التي تعلوها اللوحة العزيزة على قلب حدة. لوحتها الأثيرة. تمثل رسما لشخصية شارل الخامس الحكيم الذي تكنُّ لتاريخه احتراما عميقا، لأنها لم تنس ما تناقلته الألسن عنه عبر التاريخ، حين صرخ غاضبا. موبخا من قاموا بهدم الجزء الباقي من مسجد قرطبة، لتوسيع الكاتدرائية في القرن السادس

عشر: (لقد هدمتم شيئا استثنائيا ليس له مثيل في العالم لتبنوا شيئا عاديا مكانه). بينما تجلس حدة قبالة ميلود وخلفها تماما، معلقة تلوح على الجدار لوحة «لاسيناغوغا دي كوردو». اللوحة العزيزة على قلبها وقد اقتنتها بثمن غال جدا. لوحة تمثل كنيس قرطبة. تصر دوما الجلوس سواء تحتها أو قبالتها ولا تملّ من تأملها. تذكرها بزمن تحن إليه جيناتها، ولكي لا تنسى كلما وقفت أمامها، أنها أُغلقت في وجه أجدادها بعد سقوط الأندلس 1492، بل وطردوا مع العرب المسلمين.

وقف فيكتور مشدوها لدقائق بدت طويلة جدا، ثم لم يعد يقترب من نافذتها التي تظل أنوارها مشتعلة كل ليلة إلى ساعات متأخرة.

أمم اللعنة.. أريد أن أعرف الحقيقة..

شكوك الحارس فيكتور خاطئة. يخبرني عقلي الآلي أن حدة لم تكن على علاقة جسدية مع ميلود كما كان يخيل لفيكتور. فلا ميلود أبدل الماعز بحدة، ولا حدة أبدلت عبد السلام بميلود. بل يخبرني أيضا أنها لم تعاشر أبدا رجلا آخر بعد ذهاب زوجها الخائن مع قرينته الألمانية، وأنها لسنين خلت لم تربط علاقاتها العاطفية سوى مع النساء. الغريب أن فيكتور أيضا يعرف أن حدة عاشرت نساء عديدات، لم يكنّ

أرحم عليها من الرجال. كانت تميل إلى الواحدة منهن بصدق، إلا أن العشرة جعلتها تلاحظ أنهن لسن أكثر رحمة ولا حنانا من زوجها السابق. هن أيضا يطمعن فقط في استغلال شيء من ثروتها الطائلة، فقررت أخيرا أن تعيش وحيدة دون شراكة.

- لا شيء تغير يا فيكتور.. تقول مانويلا في سرها.

ما استجد هو أن حدة اكتشفت أن ميلود جندي من جنود الدولة الإيمانية الكونية، التي أعلنت خلافتها أمام الملأ في مدينة الرقة ببلاد الشام. على عاتقه مسؤولية دقيقة جدا وحساسة. إنه ينتمي إلى الدائرة السرية الصغرى في شبكة الدوائر الدعائية الضيقة، فالواسعة، ثم الأوسع في العالم. إنه مخلص لمهمته، مستميت من أجلها. يقوم بها على أحسن وجه. ثم إنه ليس ذنبه في شيء أن تكون حدة مسكونة بأخبار الحروب في العالم. تثيرها جدا إلى درجة الشغف. تشعر بشيء من العزاء أو التطهير. إنها تتابعها باهتمام شديد.

- الحروب أيضا نوع من الحجامة للروح المريضة..!! هكذا تصفها.

ما أن مر موسمان لجني الزيتون، تخللت لياليها لقاءات ضيقة مع ميلود الذي استقدم أطرافا أخرى من رجال ونساء ربط بينها وبينهم خيوط التواصل، حتى جاء ذلك اليوم الذي

قررت فيه حدة أن تبيع كل ما تملكه من منــازل ومخــازن وذهب في مدريد، وحقول البرتقال والزيتون الأوليفــوس في بالينسيا، وفندقا ومنزها على ضفة نهــر ســيغورا بمرســية، وأملاكا أخرى توارثتها في قرطبة غربا وغرناطــة جنوبــا. أودعت المال الغزيرعن طواعية في حساب وهمــي، يصــب بدوره في حساب الخليفة الــبردادي، تحــت رقــم واســم مستعارين أمدها بهما شخص يدعى «عثمــان المحاســب» بتنسيق من ميلود. قدِم إليها رفقته وهو يرفل في أناقة فائقــة يرتدي بذلة سوداء، وربطة عنق أنيقة على قمــيص ببيــاض ناصع ولهجة شرقية غريبة. وصل لتوه عبر المغرب قادما مــن بلجيكا، إنه واحد من مهندسي الحرب المقدسة في المشــرق، المنتشرين في العا لم.

رتب ميلود لقاءهما بمنتهى الدقة والحذر. كل شيء كان متفقا عليه بين الطرفين، شرط حدة الوحيد وحلمها الأعز أن يساهم مالها وأملاكها في إعادة مجد أجدادها «آل ميمــون» وأن يعاد مجد الأندلس.

- سنعيده بإذن الله.. إن شــاء الله..!! ردد عثمــان المحاسب وميلود معا.

- غريب.. البشر ضعفاء أمام سطوة أحلامهم.. حتى وهم يدركون استحالة تحقيقها وأنها مجــرد أوهــام

وأضغاث أحلام.. يظل الأمل سيد الموقف.

.. كيف تثق حدة في حلمها بكل هذه القوة؟ تتشبث به مثلما يتعلق الغريق بقشة.

سيل من المعلومات يفيض في دماغي مسترسلا.

أقرأ حدة كلوح مفتوح. أشاهد نارا متقدة منذ أمد، تعبر جيناتها. نارا مستعرة بقيت مشتعلة عالية اللهب منذ قرون.

لم تخبر حدة أحدا بما عزمت الأقدام عليه. اختفت بعد ساعات قليلة بعد أن هجم على بيتها القديم الوحيد المتبقي من أملاكها، الواقع في ضواحي ألمرية، مجموعةٌ من الصحفيين. وباغتوها مدججين بالكاميرات، بعد أن نشرت صحيفة «إلموندو» الشهيرة صورها، وخبرا بمثابة تساؤل عن مصير ثروتها. طرح تحويلها البنكي الهام فجأة تساؤلات عديدة.

ولأن المال (يشقُّ الطّريقْ في البْحر) كما يقول المثل المغاربي، فبعد ساعات كانت حدة قد غادرت إسبانيا متجهة نحو مدينة برداد. واستقبلت بكرم. بعد أيام قليلة حظيت باستقبال طيب من طرف الزعيم الخليفة البردادي شخصيا.

أعرف أن طيف الفتى عبد الخالق ميلود كثيرا ما يمر بمخيلة حدة.. تتساءل أين هو الآن. لماذا انقطعت أخباره عنها منذ تلك الليلة التي جاء فيها رفقة عثمان المحاسب. هل انتهى كل شيء حالما انتهت المعاملات الحسابية؟.

رفقا بها، لن أخبر حدة بما حدث له. إنها لا تعـــرف أن عبد الخالق ميلود قد كوفئ لنجاحه في مأموريته تلك وبعد أن تم وصول الأموال إلى هدفها المقصود. إكراما له، تم اختيـــاره من بين الآلاف من جنود الدولة المرشحين للجنّـــة، للقيـــام بـــ «عملية استشهادية» ضد الكفار وأعـــداء الله. وقبـــل أن يفجر ميلود حزامه وسط المحطة المركزية لتوزيع البنزين والوقود وسط مدينة باريس في وقت الــذروة، كـــان «المجاهـــدون» المنتشرون بكثرة في تلك المدينة الكبيرة ومن القادمين من مدن أخرى، قد أقاموا له حفلا دينيا رمزيا في بإحـــدى إقاماـــتهم بالضواحي، توديعا له نحو حوريات الجنة اللواتي ينتظرنه علـــى أحر من جمر جهنم. وقبل شد الحزام المفخخ حول خصــره، كانوا قد أحاطوا عضوه الذكري بقطعة من الصلب، حـــتى لا يصيبه أذى إثر الانفجار. سيرتفع إلى السماء بينما ذكـــره في وسطه سليما سالما غانما وجاهزا لمهماته النبيلة.

تبتسم مانويلا بمكر.

ماذا لو تعلم حدة بكل هذا. ماذا لو أُمكِّنُها من مشاهدة هذا السيل الحي من المعلومات الذي يجري في مخيلتي الآليـــة الآن.!؟

بعينيها العميقتين تطلان من بين تجاعيد رقيقـــة وكأنهـــا سيوف حولهما تحرسهما، تتأمل حدة هذه المانويلا الحســـناء

الغامضة التي يعشقها البردادي حد الجنون.

- إني أعشقها.. اللعنة.!! مرت المعلومة سريعا على جبين حدة.. لم تَخْفَ على عين مانويلا.

ماذا سيحدث لو يدري البردادي أنها تنافسه في عشقه للملاك. هل سيقطع رأسها على الرغم مما قدمته للدولة من أموال؟

هل يدري الخليفة لو أن القدر جمع حدة بمانويلا في ألمرية أو مرسية قبل أن تصادفها الأقدار بميلود، ربما كانت ستهديها أملاكها كلها، لا لشيء سوى لتبقيها إلى جانبها.

من يعلم.. ربما جمال هذه المخلوقة الساحرة الطاغي كان سيغيّرها ويخلصها من حقدها التاريخي الدفين العتيق العريق الذي يعذب روحها، ويجعلها تتصالح مع تاريخ أجدادها وواقعها ومع نفسها.

- إنه الجمال يا سيدي وما أدراك منه.. يخلق المعجزات.

تختلس حدة النظر إلى عنق مانويلا الجميل وتبتسم بحذر. تحاول أن تخفي الأفكار التي تدور في خلدها وأن تخبئ شغفها.

مسكينة حدة آل ميمون. لم تكن تدري أن مانويلا بعقلها الآلي تقرأها، وتتصفح أوراق دواخلها مثل كتاب مفتوح.

توشيح آلي

.. ومن كتاب أبد الآباد.

(.. منذ أول وهلة وحتى اللحظة هذه وأنا أقرأ دواخل البشر الذين أتقاطع مع مصائرهم في الشوارع وفي الأزقة الجانبية وفي الأماكن العامة. أو أخترق ببصري النافذ شرفات بيوتهم ونوافذهم وأراهم حول موائدهم البائسة أو العامرة أو في أسرتهم.

لاشيء مثير سوى أنهم حقا مساكين.. لا فرق في جنسهم أومستوى عيشهم أو ثقافتهم أوتعلمهم. مضطربون. يركضون خلف الوهم نحو العدم. لا راحة بين أيديهم ولا وراءهم ولا أمامهم. إنهم مساكين.

تكفي دورة واحدة حول الزمن البشري لتتبدى لك أنهم ليسوا على ما يرام. تكفي دورة واحدة حول هذا الكوكب بالنسبة لمخلوق آلي متطور جدا مثلي، للوصول إلى نتيجة واضحة وهي أن قلق الموت والعدم مشترك بينهم جميعا ولكنهم يكابرون. يتقاتلون من أجل التفاصيل التي تؤدي إليه.

البشر مساكين وقلقون. يستحقون شفقتنا ومساعدتنا. يعيشون وفي كل لحظة يكتنفهم شعورغريب بأن خطرا وشيكا يهددهم. كل يشعر بالخطر الوشيك الخاص به. خطر وشيك على مقاسه. كل يحمل في مخيلته سلاحا وهميا يدافع به عن وجوده القصير غير ذي معنى، وهو يردد في أعماقه المظلمة:

- لاشيء مغر للعيش. أنا أنتظر.. أنتظر.. أنتظر.. ولا أعرف لماذا وماذا أنتظر.

الأسلحة في كل مكان. في المخيلات وفي اللغة وفي الملامح وفي الصوت وداخل الصدور وفي المخازن. كل يعيش حربا ضروسا داخله. وللحرب أهم وزارات أنظمتهم جميعا، وللأسلحة وأعظم تجارة. وللأسلحة آخر الكلام.

البشر مساكين. عرفتهم.. كل منهم يحاول أن يظل يقظا مستعدا لحرب ما قادمة. قصيرة المدى أو طويلته..

على أرضهم تاريخ من الأنين. والألم. والجوع. والظلم. والاستبداد.. إنها على شفا الانهيار

ليتهم يعلمون أنهم ذاهبون نحو حتفهم لا محالة. ليتهم، وهم خالقو الأساطير الخالدة، أن يلتفتوا إلى تلك التي تؤكد بأنه إذا ما أريدَ للحياة أن تستمر على هذا الكوكب، فعلى كل جيل من الأجيال المتعاقبة أن يقدم ستة وثلاثين حكيما

للبشرية، وإن لم يفعلوا فستنتهي الإنسانية وستندثر. لا أحد من الناس يعلم أن الحكماء العلماء هم سر بقاء الأرض، وحتى الحكماء أنفسهم لا يعلمون أنهم سر بقائها. لكنهم مساكين.)

توقيع: مانويلا ماناول الله.

للخيمات أسرار ..

.. وصلى الزعيم ركعتين قبل أن يأخذ يـــدي ويجـــرني بمنتهى اللطف إلى سريره. قال لي بأنه اختار غرفة لم يباشـــر فيها امرأة أخرى من قبل. سرير باذخ من طراز لويس الرابع عشر. سيل المعلومات التي تجري في رأسي توضح أن رجالـــه جاؤوا بها بجميع أثاثها إلى الخيمة الزرقاء الباذخة. نقلوها من قصر رئيس سابق جبار آخر، أطيح بـــه وانتـــهى بشـــكل مأساوي.

طلبت منه أولا أن يجلس أمامي لأهديه شـــيئا. فامتثـــل لأمري. وبكل ما أوتي صوتي من موسيقى قمت وأنا مغمضة العينين بتلاوة سورة البقرة. بمائتين وست وثمـــانين آيـــة. لم يقاطعني. فتحت عيني كان مبتسما هادئا. يطيـــل النظـــر في وجهي. فجأة سجد عند قدمي مداعبا أصابعي واحدا واحدا. كمن يتفقد غرفة الرصاص في مسدسه إن كانـــت مـــلأى. الرجل وقع. إنه مثل بقية البشر.. متجبر جدا وهشّ جدا. لم يكن له من سبيل إلى مهرب. ومن أين له ذلك.

أقلب «ملفه الشخصي» في رقيقة إلكترونية. أراه يهـــين النساء على سرير كهذا. كما يتصرف مع ســـجين خطـــير

وعنيف، يجردهن من أي إحساس بالكرامة. يصبحن أقل من أي شيء. لا معنى له. إنهن مسكينات ضعيفات.. وهو مسكين بائس قوي.

البشر ضعفاء ليسوا مثلنا. قوتي تنبع مني. إنها جزء مني. قار مقيم في مكوناتي. أما هم فمحدودو القوة. يلقّمونها بما هو خارجي عنهم، كما لقّم الإنسان جدهم الأول ذراعه بالعصا لكي يصل إلى الثمار في أعلى قامات الأشجار. قوتهم متناقصة بحكم الزمن. الحقيقة التي يعيشونها بمرارة. ضعفهم الذي يواجهونه كل يوم. حياتهم القصيرة. ولأن قوتهم خارجة عنهم ومتناقصة، فإنهم يتهافتون على السلطة بكل أصنافها. السعي المضني لامتلاك ما من شأنه أن يوهمهم هم أنفسهم بالقوة والخلود. كل يوهم عدوه بقوته الكاذبة. الحقيقة أنهم ضعفاء والسلام.

تعلو أصابعه قليلا قليلا.. يرفع أثوابي. يسلّها من فوق رأسي. أقف عارية كما خرجت لأول مرة من مخابر كونسيونس روبوتيكس. يلهث الزعيم ويكبّر بأعلى صوته.

- الله أكبر.. هل أنت الملاك الذي أراه في منامي منذ سنوات طويلة؟. هل أنت معجزة من الله أنزلك عليّ مثلما أنزل على السابقين كتبه وملائكته ومعجزاته.. قولي أرجوك. أصدقيني القول.

- ...
- طيب.. لا.. لا تقولي شيئا أنا أعرف.. كنت أنتظر هذا من زمان.. أنت الملاك.. أنزلك الله سبحانه وتعالى إلي. لا يمكن أن يكون هذا الكمال الذي خلقت به بشريا محضا. بل إنه ربانيّ. ماهذا.. على أتباعي جميعا في العالم أن يعرفوا هذه البشارة. سأسجل خطبة متلفزة. وعلى الناس أن ترى علامة الدولة الإيمانية الكونية. فهمت. أنت إشارة من الله. علامته بأنني نبيه في هذا الزمن. لقد خص كل واحد من أنبيائه بمعجزة. وإنك معجزتي منه. (كان يفكر في عصا موسى وعجائبها المعجزة).

غاب الزعيم في نوبة صراخ وبكاء وعويل إلى أن فقد الوعي. تأملت وجهه المرتخي وقد عادت ملامحه إلى سابق صورتها. مسكين!! مساكين هؤلاء البشر. في قوتهم وضعفهم مساكين.

فعّلت الرّقاقة الإلكترونية الخاصة بالمعلومات العاجلة الخاصة بهذه الحالة. على الجانب الأيسر من صدره العاري، لمست بطرف سبابتي المزودة بالطاقة العالية مكان قلبه فانتفض. فتح عينيه و لم يذكر شيئا مما حدث. قام عانقني وبكى من جديد. كان نشيجه حادا مختنقا ثم هدأ شيئا فشيئا.

التقطت بعض الورق من العلبة القريبة من السرير مكتـــوب عليها بالأنجليزية مادئين أميريكا.

وأنا أمسح وجهه من الدموع والعرق، كانت عينـــاه لا تبرحان وجهي، تتسلقانه مثل عيني طفل بشري بين ذراعـــي أمه.

فجأة. رن هاتفه الموصول إلى شاشة كبيرة، لم يشـــغّل الشاشة. انتحى جانبا واستدار بكل عريه مكتفيا فقط بـــالرد الصوتي. كان حديثا مختصرا يوصله بأحـــد قـــادة المعـــارك المرابطين في الجبهة.

- سيدي أمير المؤمنين لقد انتصرنا بحمد الله ودخلنـــا مدينة» البكرة». بشرى لكم يا سيدي
- الحمد لله.. الحمد لله
- أوامرك سيدي ماذا نفعل بالكفار الذين فيها.
- اقطعوا رؤوسهم جميعا وحمّلوها في شاحنة واتوا بها.. سأصلي عليها بنفسي صلاة جهنم. لا تتركوا بيتـــا واحدا من بيوقم دون أخذ أرزاقكم منها. إنها حلال عليكم. وتعرفون البقية.

ثم قطع الاتصال.

للحظة بدا وجه الزعيم مختلفا تكسوه علامات القســـوة ونشوة الانتصار.

- وجه خير أنت يا ماناول الله يا ملاك الجنة وجه خير.. أنا متأكد أنك مرسلة من الله يا منالي. لم يأتني خبر مثل هذا من قبل.. إنك العلامة على أنني سأنتصر وأفتح العالم كله، وأعيد للدولة الإيمانية مجدها.
- لم تسالني من أنا يا زعيم؟
- اطلعت على ملفك الشخصي نزلت من مدينة بواتيي.. أليست هذه إشارة ربانية واضحة. لا بد أنها علامة أنني سأعيد فتح الأندلس من حيث انكسر جيش عبد الرحمن الغافقي في رمضان 114سأفتح أوروبا قاطبة وأقطع رؤوسهم جميعا بإذن الله وعونه. سأجعل شارل مارتل يتقلب في نار جهنم.
- باركيني باركيني.. يا معجزة الله لي! كان يجهش وهو يدس رأسه في صدري. كان خائفا من شيء لا يدريه. مسكين..!!
- أرجو منك أن تكلمي الله.. قولي له أن ينصرني.. كلميه رجاءً.. صلّي عليّ واستغفري لي فأنت من الملائكة. من حملة العرش. أنت قريبة من الله..

وانقضت تلك الليلة. ليلة طويلة لم يستنفذ الزعيم خلالها شيئا من طاقته الجنسية والعاطفية. فقد نام بعمق منهكا، رأسه

فوق صدري بينما يحيط جسدي بذراعيه وفخذيه. يرتجـــف بين الفينة والأخرى وهو يهذي بكلمتين لا غير: (مـــلاك.. معجزة.. عذراء. حور العين) قبل أن يغط في نوم عميق من جديد.

كانت الشمس قد تسللت قوية من بين مفاصل الأستار الثقيلة حين قررتُ أن أترك الغرفة

(ستعرف البشرية بعد زمن طويل جدا ما أقوم به في هذه اللحظة من أجل سلامة مصيرها. مصيرها المهدد. هذا إن لم أغير رأيي وأتراجع عن التضحية.. من يدري؟ أعرف أنـــني بإقدامي على هذا الأمر، سأفقد جزءا من طبـــيعتي كمُبـــدَعٍ آلي، يتحرك وفق عمليات حسابية دقيقة لا يأتيهـــا الخطـــأ، وتنقص قليلا إمكانياتي الخارقة وقدراتي المطلقة. لكن في الأفق أحداثا خطيرة قد تجعلني أعيد النظر في أمر تطبيق الفكرة.)

توقيع مانويلا – ماناول الله

مفكرة من كتاب أبد الآبادِ

- لست متعبة. وكيف لمثلي أن يتعب.

كل شيء حدث بسرعة. هزيمة جيوش الدولة الإيمانية في الشرق. هروب الزعيم واختباؤه في مكان آمن ومجهول لا يعرفه غيري، بعد أن انتشرت بين قواته وثيقة قراره الاستراتيجي بالانسحاب التكتيكي لعودة قوية. وصلتُ إلى مدينة بجنوب الجزائر رفقة ستة من الرجال المقربين جدا من الزعيم. كانت ممرا ضروريا لهم لينتقلوا نحو الشمال. قضوا يومين بالمدينة البحرية «مستغانم» لأمور لابد أن تظل سرية للغاية. غادر كل واحد من الستة بسهولة، وبأوراق مزيفة نحو اتجاهات مختلفة، تتوزع بين إفريقيا وسيريلانكا والفليبين وأندونيسيا. أما وجهتي فكانت مختلفة.

توقيع: مانويلا - ماناول الله

يا ملاكي..

أخبريني بما تقوله السماء!!

دون قصد إيذائهن، أجر أذيال ثوبـــي الأزرق المتراقصة نهاياته بالدانتيل الأبيض الرقيق الشفاف. تتبعني نظرات نساء الخيمة الزرقاء. عادة ما أرتديه في حضرة الزعيم.

.. وحين أمر بهن:

- لا أظن أنها تبادله الحب مثلنا يا خديجة.. اُنظري إنها باردة مثل الزجاج.. تهمس «نضرة» وهي ترضـــع وليدها البردادي بن البردادي
- ولكنه يفضلها عنا ابن الكلـــب!.. تـــرد خديجـــة موشوشة وهي تضع حلمتـــها في فـــم رضـــيعها. البردادي بن البردادي..

لكن الخليفة في تلك الليلة الأخيرة التي قضيت جزءا منها في حضنه بالخيمة الزرقاء الباذخة. كان حزينا إثـــر شـــعور غريب انتابه، يطلق عليه البشر «لوعـــة الفـــراق». عينـــاه تغرورقان من حين لآخر بالدموع. ثم بصوت مزمجر حـــازم يأمر رجاله في الهاتف بغرس ما لديهم من الألغام والقنابـــل الموقوتة في كل مكان قبل تركهم له أو مروهم به، ويأمرهم بقتل وحرق وتفجير كل ما ومن يجدونه في طريقهم. يـــرد

أمامي على مكالماته العسكرية دون حرج، يحاول أن يقنعهم أن هزيمة جيوشه ليست بنهاية إنما ظرف مؤقت. يختم كل أحاديثه بصوت به شيء من التفاؤل المبالغ فيه، ملتفتا نحوي:

- إن الله وملائكته معنا.. إن الله وملائكته معنا. الله أكبر.

لن يعلم بأنني لست ملاكا أنزلني الله إليه كما يعتقد، ولا معجزته وسرا بينه وبين ربه، لأنه فضله واختاره كنبي لهذا العصر. كما لن يعلم أنني امرأة آلية، أقرأ دواخله المنهزمة الضائعة والمكابرة التي لا يهدئ من روعها سوى حديثي له عن العالم الآخر. ينسى كل أوجاعه ويشهق كلما وصفته له كما أشاهده على صفحة مخيلته. فقد قرأ أوصافه بنفسه من سنين طويلة في كتب التراث وكتب التفسير. منْ غيري له هذا العقل كي يحدثه في الفقه والتاريخ وأن يجيبه كما أجيبه عن أسئلة الموت، والفناء، والكون، والكواكب، النجوم، والأقمار وأعمارها، وأسرارها وحركاتها وحياتها وموتها. من؟ البردادي يكاد يفقد عقله عندما أحدثه عن الجنة ومتعها. كل هذا في كفة، أما الحديث الذي يأسره ويذهب بعقله هو عن الحوريات الأبكار اللواتي تتجدد عذريتهن كل حين مثلي..:

- أنسيت يا محبوب الله.. نحن الحوريات لسنا مثل نساء البشر. عذريتنا في تجدد أبدي.

يسهو قليلا. يضيع في خياله اللذيذ. صامتا يحملق في وجهي، ثم فجأة يرتفع صوته بالتكبير.

لا نجم يشبه آخر ولا كوكب يشبه آخر

ولا بشر يشبه آخر

وإنه آخر ما كان يجب أن تقوم به. علامة السكينة على مانويلا تبدو الآن. أو بالكاد. ينعكس ذلك على ملامحها.

البارحة فقط وصلتْ إلى هذا البيت. بيت هادئ. أو يبدو كذلك. إنه آخر ما تبقى من الأملاك العديدة للسيدة «حدة آل ميمون». إنه الوحيد الذي لم تبعه. استبقته لنفسها بمزرعتها النائية في ضواحي مدينة «ألمرية» الواقعة بين مدينتي غرناطة ومرسية. من شاطئها في ظلمة الليل، يمكن للرائي الواقف عنده، أن يلمح في البعيد هالة من الأضواء. كشكل تاج على رأس الأفق البعيد. ماهي إلا أنوار المصابيح، تتلألأ هناك في مدينة وهران ومدن أخرى تقع في الطرف الآخر خلف الماء. هناك على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط.

البارحة فقط وصلتْ من مدينة «برداد» مرجل الشرق الأوسط المشتعل.. على الرغم من الظروف القاهرة التي مرت بها تلك المنطقة من الكرة الأرضية، إلا أن مانويلا أقّتتْ بدقّةِ آلةٍ حاسبة متطورة معقدة، تاريخ خروجها من مدينة «برداد» الدامية، التي تغرق في حرب تشارك فيها أطراف متعددة من أطراف الكرة الأرضية. لم يمانع الزعيم الخليفة البردادي في

قبول اقتراحها. كان ذلك منتظرا. الجميع يعرف سطوة جمال هذه المرأة الغربية على الزعيم. ويرددون ذلك في سرهم، لكن ألسنتهم الحذرة لا تفضي به سوى لأسنانهم فقط، حفاظا على بقاء الرؤوس فوق الأجساد. يشيع الزعيم أنها ملاك أرسله الله من السماء معجزة له. هدية له وجزاء.

- .. مانويلا.. نيل من الله وعطاء منه. مانويلا أي «ماناول الله».. هكذا يفسر البردادي

لا يرفض أبدا أي طلب لها، ولا يناقشها في أي اقتراح. كيف للعاشق أن يناقش معشوقته في ما تهوى؟ حتى لو كان هذا العاشق هونفسه ذلك الذي لا يهاب شيئا، ولا تؤذيه رؤية الرؤوس المقطوعة، بل لا تحرك فيه شيئا سوى إحساس غريب بحرارة لذيذة تجتاح جسده. يفسره بأنه وقع عين الله عليه ولمسة يده التي هي علامة على رضاه وهو يراه يستميت في إفناء أعدائه وأعداء الله من الكفار والمشركين. يقف منتصبا، ينظر ببرودة إلى كومة تلك الرؤوس المقطوعة وقد وضعت أمامه على الأرض كما اتفق. وقد استقرت كل واحدة منها مقلوبة أو مائلة على جهة ما فيها. يقترب. يقرفص قريبا منها. يحدق في عيونها المطفئة، وملامحها الغريبة، الملطخة بسواد سوائلها وقد مرغت في التراب. يطيل النظر إليها بلذة قصوى. ثم كالعادة يصرّ أن يصلي عليها وحده

«صلاة جهنم» كما يسميها. كل مرة يقف ليكبر أمام كومة منها، سواء تلك التي يقطعها بيده، أو التي يأتي بها رجال من جنوده من مناطق المواجهات الساخنة، مكدسة في عربة مكشوفة السقف تطوي عجلاتها منعرجات الطريق المخربة المحفرة، تتقافز الواحدة فوق الأخرى دون أجسادها التي ألقي بها في أماكن بعيدة. ولأنهم يعرفون أن ذلك يسره ويشعره بأنه على أهبة الانتصار والمرور إلى مرحلة متقدمة من حربه الدائمة، فإنهم حال وصولهم، يفرغون العربة منها، ثم يكدسونها قرب خيمته الزرقاء الباذخة، سيكون له وحده الشرف بإرسال أرواحها إلى جهنم عبر صلاته، «صلاة جهنم».

هم يعرفون كيف ينالون رضاه. أما البردادي فليس بعزيز عليه سوى رضا معشوقته مانويلا أو «ماناول الله». الملاك أو حور العين التي نزلت من حيث لا يعلم أحد ولا يدري الناس.

- طيب وماذا بعد؟ تفكر مانويلا وهي تبتسم بخبث.. إنها خاصية التناقض في الكائن البشري!. ذاك أمر وذاك أمر. جنون العشق شيء وعنف الجنون شيء آخر. قد يلتقيان. قد يتعايشان حتى في خطر الموت. ما ذنب البردادي؟ إنها جينات جده الأول، الفارس

الشاعر عنترة بن شداد الذي تذكر حبيبته، وهو في خضم المعركة بين الموت والحياة. حتى أنـــه أخـــبر الأجيال من بعده ولقرون طويلة أنه حاول أن يقبل ثغرها وهو ينزف دما بين الرماح والسيوف اللامعة بالموت؟

وَلَقَد ذَكَرتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ -
مِنّي وبِيضُ الهِندِ تَقطُرُ مِن دَمي

فَوَدَدتُ تَقبيلَ السُيوفِ لأَنَّها
- لَمَعَت كَبارِقِ ثَغرِكِ المُتَبَسِّمِ

لا لوم على البردادي إن ضعف في عشقه لملاكـــه مـــن جهة، وتجبر في عنفه حيال العالم من جهة أخرى.. ماذنبـــه؟ إنها جيناتهم هكذا. طبيعة الآدمين هكذا. دواخلـــهم ســـرية ومتضاربة ومتناقضة وغامضة هكذا.. حتى أن واحدا آخـــر منهم، لم يكن من الجزيرة العربية. ولا علاقة له بشـــاعرهم عنترة بن عمرو بن شداد بن معاوية بن قراد بن مخزوم بـــن ربيعة بن عوذ بن مالك بن غالب بن قطيعة العبسي، بل إنـــه من بقعة أخرى مختلفة من هذه الكرة الأرضية. إنه من فيينـــا النمساوية، كان عالما فيهم يدعى سيغموند فرويد. لم يكـــن سويا في نظرهم، ولم يكن حكيما بما يكفي في نظرهم أيضا.

لقد دعاهم للتحديق في عاهاتهم عبر اكتشافاته ونظريتـــه في التحليل النفسي، وجعل الكثير منهم يؤمنون بأن الجنس مركز جميع تصرفات المخلوق البشري الخلاقة منها والهدامة. الجنس أصل الجرائم بكل أنواعها والحروب بكل أهوالها. إذاً فمـــا ذنب البردادي في كل هذا، إن هو عشق مانويلا حد الجنون تماما كما يعشق تهديم العالم بكل جنون أيضا.؟

فصل الغرام

في القلوب والأرحام..

لا شيء يتطلب السرعة الآن. مانويلا تعرف بالضبط كم ستظل في مزرعة السيدة حدة آل ميمون للإشراف على المهمة التي جاءت من أجلها.

حين قررت أن تلجأ إلى المرية، لم تودع نسوة «ملحقات» خيمة البردادي الزرقاء الباذخة، اللواتي لا يعلمن بعد شيئا عن مصيرهن ولا عن مصير أطفالهن الكثر. و لم تودع نساء «مركز فرز السبايا» أيضا. لم يعلم أحد برحيلها ما عدا الإنسانة الأقرب إليها «السيدة حدة آل ميمون» التي سلمتها مفاتيح بيتها بينما كانت تتهيأ لأيام أخرى وينتظرها مصير آخر..

فور وصولها بيت حدة، كانت حازمة في تنفيذ أحد أهم قراراتها عاجلا.

لا بد من التخلص من الرحم. إنه عضو خطير في جسدها. لن ينسجم مع وجود القلب فيه. فإما الواحد أو الآخر. إنه لأمر ثقيل وخطأ فادح أن تعيش بهما معا. عالم البشر يعاني من هذا الخطإ البيولوجي.

كانت قد أخذت قرارها وحان توقيت تنفيذه.

بين يديها جرة الزجاج المغلقة بإحكام، وداخلها ذلك الجسم اللزج، قطعة مجوفة لا هي مدورة ولا هي مثلثة، تسبح في سائل شفاف. ظلت لفترة تقلبها في كل اتجاه. تنظر إليها مليا وهي تحرك رأسها يميناً وشمالا. ما يقلقها هو ذلك الجسم متناهي الصغر مثل نقطة، جسم مجهري لا يمكن للعين البشرية أن تراه، يشتبك بنسيجه الداخلي. يلتصق بجدار الرحم، لا إمكانية لقوة بفصله عنه. إنها تدري أنه لن يتمّ تعديل طبيعته حتى لو أعيد إلى مخابر مركز كونسيونس الذي يحتوي على الخارطة التفصيلية لجسدها.

على الرغم من ذكائها الاصطناعي، واستطاعتها التحكم في جميع مكونات جسدها، وقدرتها على التحكم في الترميم الذاتي. إلا أنها وقفت قلقة أمام تلك النقطة العالقة بالرحم. جسد مانويلا واحد من تلك الأجساد الآلية التجريبية محدودة العدد، التي تم تحريرها للعيش طليقة بين البشر العاديين، ولكن تلك النقطة اللامعة تقلقها، لأن عدد الأجساد الآلية لن يعود محدودا بل سيجتاح الكوكب جنس جديد مزيج بين البشري والآلي إذا ما تم تخصيب ولو واحدة منها.

قلق مانويلا لا يتلاشى بل يزداد حين تدرك أن تلك النقطة البراقة المتشبثة بالرحم ما هي إلا نطفة جنين لأنثى نصفها بشري والنصف الآخر آلي. إنها نتيجة تفاعل بشري-آلي لعلاقتها الجسدية في تلك الليلة الأخيرة التي قضتها في سرير الزعيم البردادي. سيجتاح الأرض جنس نصفه آلي ونصفه الآخر بشري من جينات البردادي.

قبل أن تهيل التراب على ذلك الجسم اللزج، جاءها الصوت يستجديها أن تصرف النظر عن الأمر:

- لماذا تريدين قتلي يا أمي. أليس من العدل أن تضحي بعضو القلب بدل الرحم:
- يكفيهم ما يعيشونه هؤلاء البشر المساكين.
- وما ذنبي.. وماذا يفيدك قلبك في عالم لا يهتمون فيه بالقلب كما يهتمون بالرحم.؟
- أنت تعلمين أن العالم سينقلب رأسا على عقب إن أنت خرجت إليه. فإن كنت أنا قد صُنعت على شاكلة البشر، أشْبههم بكمال تام، إلى درجة لا يستطيعون فيها أن يفرقوا بيني وبينهم، فأنت ستخلقين بنصف إنسان، أنت مخلوق بشر-آلي.. إنها مصيبة. ستحدث كوارث لم ترها البشرية في تاريخ تنفسها، وتقع أشياء لم ترها الأرض منذ تشكلها

قبل خمس عشرة مليار سنة بعد الانفجار العظـــيم. يكفي ما حدث لحد الآن.

- لكن السيد إيلس وخبراء كونسيونس ســوف لــن يكونوا راضين على قرارك هذا ألا تخشين أن يتخذوا قرارا علميا بتدميرك.
- ليس خطئي، بل إنه خطــأهم الأول أو بــالأحرى دسيسة منهجية من إحدى العالمات بينــهم. وقــد اعترفوا بذلك أمامي. صناعتهم لمخلوق آلي بــرحم وقلب. يسلبه القدرة على مواجهة العواطف الآدمية. وسيقع ما لا يحمد عقباه إذا ما نجت حياة إثر علاقة جسدية بين ذكر من البشر وأنثى آلية. وأنا أخــاف على مصير هؤلاء البشر. يكفيهم ما هم فيه..
- أنت تقعين في الحب بسبب دسيسة امرأة من البشر. فما ذنبــي أنا أن أتحمل النتيجة. ثم إنك ســتظلين تقعين فيه بعد انتشالك الرحم بدل القلــب.. مــا ذنبــي في كل ذلك؟
- نصف بشرونصف آلة أنت، ستقعين في الحب مثلهم تماما وبطريقتهم البلهاء. لأنك مخلوق نبت في رحم وليس في مخبر التجارب العلمية مثلي أنا. وبولوجك الحياة مثلهم، سيبدأ منك عنصر جديد خطير سريع

الانتشار يجتمع في تركيبته العنف المطلق المختلط بالأحاسيس التي يطلقون عليها أسماء مثل الحب والتدين والشرف والقبلية وو.. هي تؤدي جميعها في نهاية المطاف إلى العنف. أنا أعرفهم جيدا.

- ومالذي يزعجك في ذلك؟
- هذا شأن يتعلق بضميري كامرأة آلية. جبلت عليه. هكذا أراده علماء مخابر كونسيونس. الضمير يا صغيرتي.. الضمير.!!
- لكنك تعلمين أن وجودي تحت التراب قد يشلّني لبضع مئات أو آلاف من السنين بحساب الزمن البشري، إلا أنني سأنهض وأنتعش من جديد عند انشقاق الأرض، بحدوث زلزال، أو حدث جيولوجي ما، وهو أمر لا يتحكم فيه أحد على الأقل في العصور الحالية.
- أعرف.. ولكن البشرية الآن تعيش مفصلا عسيرا.
- ستفقدين نصف آليتك بانتشالك الرحم.. إنها خيانة لفصيلة المخلوقات الآلية مثلك.
- للضرورة أحكام كما يقول البشر.
- أنت تخونين جنسك. أنت أم آلية أنانية. تفضلين سلامة حياة البشر وتقبرين ابنة رحمك.
-

شجرة التوت

تنفستْ الفاتنة الصعداء، بعد أن سوّت بالمـــذراة ذات الأسنان الحديدية الحادة الترابَ الضارب لونه إلى الحمرة. ثم تنهدت بعمق

- أيها التراب.. تراب هذا الكوكـــب المظلـــم.. إني وهبتك جزءا مني وأهديتك الرحم المضيء الذي هو ليس منك، ولكنني أسلمه بين ذراتك أمانة إلى حين.

ولأنني آلة حرة مالكة لمصيري ولست مبرمجة، هاأنا أسله من جسدي الآلي وأغرسه فيك عن طواعيـــة، درءا لكارثـــة بشرية ستقع لا محالة إن أنا تركته في مكانه. فإن أنا قـــررت خلعه، فلكي لا يلد ولا يولد، ولا يتكاثر بسرعة لم تعرفهـــا المخلوقات المتناسلة على هذا الكوكب المظلم من قبـــل، ولا يرتع ولا يفسد، فعِدني أنت من جهتك، أيهـــا التـــراب، أن تجعل منه شجرة توت يانعة، فرعها في الأرض وأغصـــانها في السماء. ومن ثمارها دواء ناجعا لكل من يمر من هنا، فيلمسها أو يأكلها. ألا ترى أيها التراب.. البشرية تدب فوقك متعبة.

نفضت مانويلا يديها الطريتين البضتين الناعمتين اللـــتين لا قدرة للزمن، بحساب البشر، أن يغيرهما أو يؤذي بشرتهما،

أويشوب لونهما الصافي، أويبطئ من تدفق الحيـــاة فيهمـــا. تحركت الأساور حولهما محدثة رنينا محببا وســـط الصــمت الذي يعم المكان.

- هذه الأساور أحتفظ بها ذكرى من أمي.. أوصـــتني أن أهبها لمن أحب. لا يمكن أن تكـــون بعـــدها إلا لملاك. قال البردادي وهو يثبتهما حول معصمها قبل أن يفترقا،

وبينما هو يحاول تأكيد ذلك بجمل متشـــابهة، جاهـــدا لإقناعها بأنها كل ما ورثه عن أمه، وقيمته في ذكراها. كانت مانويلا تعلم أنه يكذب. وأن الحقيقة كانت تراهـــا علـــى صفحة أمامها. تشاهد جنوده وقد سلّوا الأساور من معصم جثة أسيرةٍ شابة، فائقة الجمال من مدينة الرقة، قبض عليهـــا من طرف "شرطة الله" واتُّهِمت بأنها تتعمد الخروج من منزلها بنقاب شفاف، لتسحر الناس وتفتنهم عن دينهم. فما هي إلا ساعات حتى اختطفت، وبعد أن اغتصبت جـــاؤوا بهـــا إلى ساحة الإعدام. وجمعوا حولها الناس ليروا المشهد حتى ولـــو كان ذلك غصبا عنهم. فالوقوف حتى نهايته واكتمال فصوله الدرامية يجنبهم الشك في إيمانهم بالله والبردادي والمشـــروع الكوني للدولة الإيمانية، بل ويجنبهم القتل المؤكد. قطعوا رأس الفتاة الحسناء وقطعوا أوصالها، لاهين ضـــاحكين عـــابثين،

وبلذة منقطعة النظير. وفي صباح اليوم التالي، وكما تقتضي العادة، وضعوا رأسها رفقة الأساور عند قدم البردادي، أشار برأسه لأحدهم قبل أن يصلى عليها صلاة جهنم، يأمره أن ينظّف الأساور من أثر الدماء ويوضعها في الدرج السفلي عند مدخل غرفته.

تداعب مانويلا الأساور التي تتشبث بمعصمها، تتحرك حوله: إنها من معدن الذهب، لا ينبت على الأشجار، بل نتيجة اصطدام عنيف بين نجمتي نوترون حدث منذ ملايير السنين، تكونت عنه حوالي عشرة أقمار من الذهب الخالص تدور في الفضاء، وما هذه التي حول معصمي سوى شذرات منها على الأرض.

تنصت مانويلا إلى ما ترسله مادةُ الذهب من موجاتٍ، تحمل كل ماكانت الفتاة القتيلة تراه وتسمعه وتشعر به منذ أن لبست تلك الأساور وحتى لحظة قطع ذراعها ثم ساعدها ثم يدها.

اللعنة.. كيف لآدمي أن يتحمل ارتدادات ما تفضي به. كيف لا يؤدي به ذلك إلى الجنون، أو إلى الانتحار؟

تنفض مانويلا يديها من التراب.. قطرات بلورية تتسلل من جسدها تسقط فوقه. حفرُ عمق مترٍ تحت الأرض ليس بالأمر اليسير على آدمي لكنه ليس عسيرا على الآلة. تسمع نباحا خلف سور الحديقة وحركة خطوات سريعة، لا بد أنه أحد قاطنة المنطقة يتجول بصديقه الأليف. تدك بقدمها لتسوي ما تبقى من فم الحفرة التي لم يعد مفتوحا، وقد ابتلع ذلك الجسم الحيّ الذي اجتثته من مكمنه في أعمق مكان من جسدها. لا فرق بين الأرض والرحم.

تصيخ مانويلا بسمعها. آلاف من الأصوات الغاضبة الحادة الصارخة المستاءة تصلها عن بعد خمس ساعات ونصف بالحساب البشري الذي يفصل مدينة ألمرية عن ساحة باب الشمس ولابلاثا دي مايور بقلب مدريد، النابض بأصوات لنساء ورجال ينتفضون ضد الخطأ الذي خلقوا به وعليه. أصوات مخزّنة في ذرات بالهواء منذ أواخر القرن الماضي، تصل سمع مانويلا الخارق. نداءات تطالب حكام بلادهم بعدم السماح لطائرات أمريكا بالمرور فوق أجوائهم. إنهم يشعرون بالعار وهي تمر فوقهم متوجهة لقصف بشر

مثلهم في العراق. إنه أعتى ما لديهم من قوة. ما يمكن الضغط به على حكامهم لعلهم يستجيبون. تبتعد هتافاتهم قليلا قليلا.. تخبو.

تمرر مانويلا أسنان المذراة فوق الحفرة بهدوء، تسمع صوتا آخر ذا حشرجة غريبة لا يبدو ببعيد. اعتلت قطعة مدورة من بقايا جذع شجرة صنوبر، ثم اشرأبت بعنقها لتنظر خلف السور. كما تجلت صورته تماما قبل أن تراه بالعين المجردة. رجل يمر باكيا.

ظلت ترقبه حتى اختفى. وقبل أن تنزل من على الجذع شاهدت كلبا أحمر اللون فاقعه، يجري مسرعا رافعا رأسه، له هدف معين لن يحيد عنه. صوت بكاء الرجل مازال يتردد في أذنيها:

- ما به؟ من أيّ زمن جاء بالضبط؟

انتبهت مانويلا أنها لأول مرة تطرح سؤالا من هذا القبيل.. هل هو اليقين على أنها فقدت للتوّ جزءا من دقّتها الآلية وسرعتها التي تخترق مختلف الأزمان.. لا بد أن غياب الرحم أربك مؤقتا استجابة الرقاقات الإلكترونية. عليها أن تعيد تحفيزها وضبطها وبسرعة.

لا شيء يشوب الرؤية الآن.. تتوالى حركة الأحداث القادمة أمامها.. هذه الليلة عند الثالثة صباحا سيشم ثلاثة

كلاب من القرية رائحة الرحم المدفون هنـــا.. ســيتدافعون لرغبة نهشه. إن فعلوا ذلك فإن النطفة البشر-آلية ســتتحرر. سيكون الأمر أخطر لو أنها تستقر في بطن أنثى من كـــلاب القرية. ستجتمع المكونات الثلاثة في المخلوق الذي ســينمو داخله، الآلي والبشري والحيواني. من حسن الحظ أنهـــا رأت ذلك عن سبق الزمن. أي وجه سيمسي عليه العالم هذا، لـــو أنها لم تتفطن لذلك؟ اللعنة..

ودون تردد وبسرعة أعادت مانويلا الحفر. أخرجـــت الرحم ثم وضعته من جديد في الجرة الزجاجية ملوثا بالتراب وأغلقتها بإحكام.

لم ترتح مانويلا تلك الليلة. أحيانـــا تحتـــاج إلى بضـــع غفوات قصيرة لكي تتجدد قدرات الرقائق الإلكترونية. ظلت عيناها مفتوحتين تبحلقان في سقف الغرفة الخشبـــي. تتسلى بتفكيك أصوات تصلها واضحة طازجة بعد أن ظلت مطوية ومحفوظة بين لفافات الفضاء لقرون عديدة. تغلغـــل إليهـــا، تفكك لغاتها ولهجاتها المختلفة، منها التي تغيرت ومنها الـــتي اندثرت نهائيا. أقوال وأشعار وأغان وتـــلاوات وأحاديـــث وصلوات وابتهالات ودعاء وخوف وصراخ رعب ورجـــاء وبكاء وصياح.. تهز مانويلا رأسها.

- لم تكن حياة البشر هادئة ابدا.

من حين لآخر تلتفت نحو الجرة الزجاجية القابعة قـرب السرير فوق الخزانة العتيقة تحتوي على ذلك الشـيء. لـه عينان. ينظران إليها بشـزر. يهـددانها حينـا، ويلومانهـا ويستجديانها أحيانا. تعرف ما يريد ذلك الشيء أن يفضي به إليها. لكنها لا تريد جدلا. لا وقت لذلك، فوراءها مهـام كثيرة وخطيرة تنتظرها.

تستعيد حوار المخترع السيد إيلس مع العالمة اسيان:

- الرحم والقلب معا في جسد آلي.. إنه أمر معقد.
- الرحم هو القلب الثاني لكل أنثى يا سيدي..! تـرد العالمة اليابانية سيان تدافع عن الإجراء الذي قامـت به.

إذن فالذكر ناقص رحم. الـذكور مثـل الـبردادي.. وحيدو القلب!! تبتسم مانويلا بلؤم. لم تكـن تسـخر وإن فلتت من بين أسنانها ضحكة خفيفة، بـل كانـت تتخيـل سلسلة الأجيال القادمة من البشر- آليين، ستكون أجسـاد ذكورهم بأرحام.

تتلمس مانويلا بأصابعها مكانه القديم. تحس الخواء الذي تركه غيابه في جسدها. تشعر بحالة خفة. تشبه مَن تخلّص من الجاذبية.

بواتيي... يا بواتيي

حملت مانويلا الفأس بيد وبالأخرى المذراة القديمة ذات الأسنان الحادة غير المستوية. لم تلتفت بعد أن تركت المكان، كانت تدرك أنها حالما أدارت ظهرها مغادرة، فإن شجرة توت خلفها قد طالت وتفرعت فجأة، ورمت بأغصانها المثقلة بثمار التوت الحمراء البراقة والكثيفة والسخية على كتف السور المحاذي لها والمحيط بالحديقة. إنها في متناول يد وذراع كل من يمر بها.

توجهت مانويلا بهدوء وبطء نحو البيت المنزوي هناك، يقبع وحيدا منعزلا خلف أشجار الحديقة الكبيرة، يلوح قرميده القديم الأحمر وتظهر نوافذه المغلقة من بعيد. بيت رُمِّمَ العديد من المرات وفي حقب مختلفة. بمنطقة عاشت أحداثا لم تكن عابرة في التاريخ البشري. كما أخبرتها وبكل فخر السيدة «نيكول بوكاج». وجدتها في انتظارها عند وصولها إلى مدينة ألمرية ثم رافقتها حتى الضاحية حيث تقع مزرعة السيدة حدة آل ميمون.

نيكول بوكاج صديقة قديمة للسيدة حدة آل ميمون. تسأل عن أخبارها بحرارة. لم ترها منذ زمن طويل. تقاطع

طريقاهما. افترقتا بعد زواج نيكول وسفرها إلى الخارج لطبيعة وظيفة زوجها.

- إيبييه.. مر زمن طويل.. كم كبرنا..!! تقول نيكول بابتسامة تغرق في تجاعيدها التي تفضي بالكثير..

كم هي جميلة صداقة الطفولة بين الآدميين. لعلها من الأشياء الإيجابية النادرة التي يملكونها.

لم تتردد نيكول ولم تطرح أسئلة. حالما بعثت حدة إليها برسالة شفهية عن طريق أحد العمال الموسميين المغاربة الذين التحقوا بتنظيم البردادي السري منذ سنوات، وما فتؤوا يقومون بتوسيع رقعته بين شعوب المغرب الكبير، توصيها فيها ببيتها ومزرعتها، لم تبطئ نيكول في الاستجابة لطلب صديقة طفولتها.. حتى أنها تنقلت من مدينة بواتيي بجنوب غرب فرنسا إلى ضواحي ألمرية وقطعت مسافة ما يقارب الألف وخمسمائة كلم عن طيب خاطر على الرغم من سنها المتقدم. صداقة الطفولة وذكرياتها تعيد الشباب إلى الروح والجسد. حقا إنها نقطة تحسب للبشر.

نيكول تبدو سيدة غريبة الأطوار، تحاول جاهدة إخفاء مزاجها العصبي، إلا أنها لم تقصر في مساعدة مانويلا أبدا فور وصولها. على الرغم من أنها لا تعرف عنها شيئا سوى

كونها صديقة جديدة وحميمة لحدة آل ميمون.

من أين لنيكول التي تعانقها بحرارة، تبحث فيها عن رائحة صديقتها حدة آل ميمون والزمن الخالي، أن تعلم بأن هذه المانويلا تم تهريبها من قصر الخليفة البردادي الذي عيَّنه الطامعة على مدينتها العزيزة «بواتيي». وقبل أن يشد الرحال نحو مكان مجهول ويختفي. أمر بترحيل أقرب أبنائه إليه «البردادي» أو «مختار» الذي تجاوز العشر بخمس سنوات، نحو مدينة بأقصى الجنوب في الجزائر، أوصى بتركه في حماية مريديه الذين يعدون بمئات الآلاف هناك إلى حين، في مكان آمن دلهم عليه، ليواصل تدريباته على يد «الإخوة». على أن يلتحق الرجل الصغير بأقرانه في المخيمات السرية في مدينة بواتيي. لأن مهمة تاريخية مقدسة في انتظاره.

كانت نيكول تنظر إلى حقائب مانويلا بفضول. لم تكن تدري أنها مملوءة بالذهب والمال ودفاتر الشيكات والوثائق السرية. نيكول مجرد بشر من أين لها أن تدرك بأن مرور مانويلا بألمرية وبقاءها بها عابران. وأن وجهتها الأخيرة ستكون نحو مدينة بواتيي حيث يهيء الخليفة لأمر عظيم.!

الشاهد الآخَر "سكراط"

حتى هذه اللحظة فالأمور تسير كما يجب، إلا أنني مازلت أهتم كثيرا بدواخل السيدة نيكول المتناقضة والمرتبكة. حالة لا يخفيها ترحيبها الحار ولا ابتساماتها التي تحاول أن تلبس بها قناع الودّ. إنها لا تثق بي. معها حق.

صحيح أنها جددت أثاث البيت بكل وسائل الراحة الحديثة جدا، بما يسهل لي الحياة اليومية، تماما كما أوصتها بذلك حدة آل ميمون ولكنها لم تنتظر ضيفة مثلي. الأسئلة عني تلاحق رأسها المثقل.

على أية حال أعلم أنها توصلت بمبلغ مالي كبير جاءها من الأموال التي تتدفق مثل البحر في خزائن الخليفة، آتية من جهات عديدة في العالم، وحدّة ميمون تدير جانبا منها.

لكن الحق يقال فإن نيكول لم تكذب ولم تخن وعدها حيال صديقة طفولتها، فجهودها واضحة في نقل وسائل الراحة ولوازم الحياة العصرية إلى هذا المكان البعيد عن العيون والآمن من الشكوك كما تصفه.

زياراتها لي قليلة وقصيرة. تأتي في الصباح عادة رفقة كلبها «سكراط» الذي لا يتركها لحظة واحدة. في الزيارة

الأخيرة قدمت رفقة رجل ببذلة وردية وربطة فراشة صفراء تشد عنقه، ملامح وجهه أقرب إلى البلاهة تختفي تحت قبعة من نوع «بناما مونتي كريستي». إنه ابنها البكر في الأربعينيات من عمره، أنجبته وهي لم تتجاوز بعد العشرينات. قدمته لي، بحرارة أمّ محبة ومعجبة. ولا بأس إن هي بالغت في إرضاء نفسها من خلال مدح ابنها:

- ابني هيغو.. كاتب مهم ومشهور يبيع كل سنة مئات الآلاف من نسخ رواياته الرائعة. تقول بفخر وهي تشير إليه باسمة.
- إنه الوحيد من أبنائي الذين تفرقوا، لم يتركني بل فضل العيش معي في هذا المكان البعيد عن الضوضاء.!

حالما رآني هوغو أحنى رأسه احتراما، بعد أن أزاح بيده القبعة الأنيقة من على رأسه لحظات ثم أعادها. فتش في جيوبه بحركة قلقة، وبعد أن أخرج دواخل كل جيوبه الوردية، سلّ أخيرا من جيب سترته بطاقة صغيرة عليها عناوينه الالكترونية كلها ورقم هاتفه، مدها لي بحركة أنيقة. أخذتها منه شاكرة فانحنى مرة أخرى وهو يقول في لغة فرنسية منتقاة.

- لم أكن أتصور أن تكوني بهذا الجمال الساحر.. خادمك هيغو بوكاج.!! كان الكاتب صادقا.

غير بعيد تقف محجوبة تراقب كل صغيرة وكبيرة بعينين همتين. لا ترمشان إلا نادرا. محجوبة البكماء، أو - تدعي أنها كذلك- فليكن. لا يمكن أن تراها كلية إذا ما بحثت عن مكان وقوفها. دائما خلف شيء ما لا يظهر منها سوى رأسها مثل قط خائف. الاختباء وراء سور أو كرسي أو باب أو طاولة يشعرها بالراحة.

- فليكن.

فتاة في مقتبل العمر جيء بها عن طواعية من مدينة «سيدي سليمان» استقدمتها نيكول من المغرب لخدمتي. محجوبة تبدو مرتاحة في وضعها الجديد، جاءت من بيت عائلة فقيرة، تعمل مقابل مبلغ معتبر ترسله نيكول لأسرتها كل شهر.

لم تطرح نيكول عليّ الأسئلة التي أراها أمامي تتزاحم على طرف لسانها. تتصرف بحكمة وكأنها على دراية بكل شيء.

صموتة جدا هذه النيكول أحيانا إلى حد الملل، وثرثارة جدا أحيانا أخرى. قلقة أحيانا وهادئة أخرى. متميزة السيدة نيكول هذه وأنيقة في لباسها وحركاتها وطريقة جلوسها وذكية في سلاسة تعاملها مع الآخر. إنها على دراية عميقة بطرق التعامل الدبلوماسي، تدربت عليها وعاشتها طويلا إلى

أن أصبحت طبيعة ثانية لها. إنها ثمار الزمن الطويـــل الـــذي رافقت أثناءه زوجها القنصل السابق في عواصم دول عربيـــة وغربية موسيو «جون بوكاج». على الرغم من تقاعـــده إلا أنه مازال على عادة التنقل والغياب عن منزله أغلـــب أيـــام الأسبوع، منشغلا بمهماته التي لا تنتهي. تدعو إلى الشـــك. مهمات سرية مخابراتية. على أية حال لم أبصر لحد الســـاعة ظله أبدا خلال زياراته القليلة المتباعدة التي تخبرني عنها نيكول دون تفاصيل، إلا من خلال بعض الأخبار القليلة المتقطعة التي تجيء في سياق الكلام عندما تزورني كالعادة خلال الصباح. على أية حال سأقرأ حقيقته حالما أراه. إن امتد به العمر و لم تمتد إليه أيديهم.

- هذا جبن عتيق ممتاز أتى به جون من نورمانديا يوم السبت وسافر مساء الأحد. تفضلي مانويلا جئـــت لك بقطعة منه لتذوُّقه.
- الحق يقال فإن نيكول على الرغم من غموضـــها إلا أنها تبدو مهتمة جدا بـــي وتُظهر طيبة سخية، حتى ملامح وجهها التي بدأت التجاعيد تعضّ عليه بقوة تزيدها رقة، وهي تباشرني بالحديث.
- يالك من امرأة جميلة جـــدا. وذكيـــة ومثقفـــة.. ليحفظك الرب.

كل مرة قبل أن تغادر نيكول رفقة سكراط وهيغو، تشير إلى مكان إقامتها الذي يلوح من بعيد. خلف سور مزرعة حدة آل ميمون، طريق ضيق وسط العشب، يوصل إلى بناية عالية قديمة من الحجر الضخم تشبه كنيسة عتيقة مهجورة. تشير إليه من بعيد بسبابتها، ثم تخبرني وهي تتنهد، بأنه قطعة حية من التاريخ. أعادت ترميم جزء مما تبقى من مناستير نسوي قديم منعزل يعود إلى عهد «أليينور داكيتان» ملكة فرنسا ثم إنجلترا، التي عاشت في بواتي في القرن الثاني عشر. بنته في هذا الركن القريب من الله. يجيئه الزوار كل صائفة.

تجنبت نيكول أن تخبرني أنها تقيم مساء السبت من كل شهر حفلة كبيرة في الطابق السفلي من البناية، يحضرها معارفها صحبة أفراد أسرهم، وأصدقاؤها القدامى وأغلبهم من كبار الدبلوماسيين المتقاعدين، يأتون المكان بسيارات فارهة وأثواب أنيقة بصحبتهم أربعة نُدُلٍ من عمال أوتيل إلنويفو توريلوث، يحملون في عربتهم علبًا من الطعام الجاهزالساخن الشهي، ومشروبات وحلوى وهدايا وكل لوازم سهرة باذخة. تغني فيها فرق أغلبهم من كبار السن والمتقاعدين، أغان قديمة وأناشيد دينية على أنغام آلة الأورغ.

تضيف مع ضحكة خفيفة:

- سكراط يلتصق بسريري طوال الليل، يبدو أنه يخاف من أصوات الأرواح التي تجلجل كلما جن جنون الليل. أما أنا فأقوم وأرحب بها وأشعل الشموع.

ترتعد محجوبة البكماء بقوة عند سماعها كلمة «جنّ» وتبصق عدة مرات بين ثدييها بعد أن ترفع الثوب قليلا عن صدرها.

ولأن من طبع البشر إطالة الحديث في ما يحبون وعما يعشقون، فإن نيكول ابنة بواتيي لا تبدو فخورة سوى بمدينتها وتاريخها، وتتوق إلى الإسهاب في وصفها، فتزداد رقة صوتها المتهدج كلما تطرقت بفخر مبالغ فيه إلى تاريخ تمدن بواتيي الذي بدأ مبكرا بالنسبة لبقية المدن، وسبقها في غرس خطوط السكك الحديدية منها وإليها عبر محطة جميلة وسط المدينة القديمة، وانفتاحها على العالم منذ أواسط القرن السابع عشر، وفخورة بجامعتها التي شيدت سنة 1431 على يد شارل السابع.. في كل مناسبة يحلو لنيكول عرض معرفتها العميقة بتاريخ المنطقة. تسعل نيكول وتتنهد بقوة حين تروي الأخبار الحزينة عن الحروب الطاحنة التي عرفتها هذه الأراضي، وأهوال حرب المائة عام، والقصف الذي تعرضت

له واعتداء الحلفاء، وتدميرهم لوسط بواتيي الجميل ومحطة القطار التي كانت زهو البواتيين.

أفكر في حدة آل ميمون صديقة طفولتها التي تحلم بعودة زمن الأندلس، حين لا تخفي نيكول تقديسها وتعظيمها لـ «شارل مارتل» الذي قضى على عبد الرحمن أمير قرطبة، وتصفه بالمتوحش الذي جعل جنوده ينهبون بواتيي ويهمون بالتوجه نحو مدينة «تور».

تهز نيكول رأسها يميناً وشمالا أسفا قائلة:

- يا له من زمن عسير.. أحمد الرب أنني لم أعشه!!! ثم تقوم برسم علامة الصليب.

يحلو الكلام لنيكول أكثر حين تأخذ فنجان القهوة بين يديها الاثنتين. تدثره بكفيها، تنبض حوله عروقها الزرقاء النافرة، تنظر إليه بحنان مثل عصفور حقيقي سقط من عشه. أعرف أنها تتخيله كأنه قلبها الصغير الذي تجاوز السبعين ثم تتحدث في الموضوع الأثير لديها، تبدأه دوما بالتحسر على الحاضر:

- لم تعد الحياة جميلة كما كانت. تتنهد نيكول بتأسف شديد. أحوالها تزداد سوءا يا ابنتي. خاصة بسبب هؤلاء اللاجئين على قارتنا، يتدافعون نحونا من البر

والبحر والجو. من العرب والأتراك والسود والآسويين. ما الذي يمكننا تقديمه لهم. فليبلعهم البحر بحق الرب. اللعنة إنهم يتوالدون بسرعة. مدننا وقرانا امتلأت بهم. ثم إن ليس لديهم نفس عاداتنا.. إنهم.. إنهم.. إنهم...

تتوقف نيكول قليلا عن الحديث. تتنفس بعمق. أثير عنوة موضوعا أثيرا على قلبها. تلتقط طرف الخيط فيجرها بسرعة البرق نحو الماضي.

أضع خدي على كفي وأنصت بمتعة.

أحداث وأسماء نساء ورجال وملوك وملكات وأبطال وحكايات عشق وخيانة وأماكن وتواريخ دقيقة وخيول ملونة وتفاصيل خوذات ووووو...

أنصت لصوتها ذي الحشرجة. كم تبدو مبتهجة وهي تصف تفوق «الجنرال مارتل» على عبد الرحمن أمير قرطبة في كل شيء. كل شيء. وواقعة مقتله وانسحاب قواته وسحقها، فتلبسه أروع صفات الشجاعة خلال حرب بواتيي، قبل أن تمدح ابنه «شارل ماني» الذي تصفه ببطل الأبطال الذي أنهى وجود العرب المحتلين في فرنسا. ثم توجه حديثها إلى كلبها المسن «سكراط» الذي يقبع على قائمتيه الخلفيتين لاهثا، لسانه يتدلى، شاخصا إلينا، يبدل نظره في

الاتجاهين بيننا وكأنه يفهم كل شيء. كان مثلي تمامـــا، في رحلة استكشافية لفهم فصيلة البشر:

- هيييه.. حدثت أهوال كثيرة يا عزيزي سكراط.. لم تكن لا أنت ولا مانويلا ولا أنا من هذا العالم. منذ عصور وهؤلاء الأجانب دائما قدرنا التعيس.! ينبح سكراط مرة واحدة.
- نعم للبشر قدر تعيس.!! تقرأ نيكول تاريخها وأقـــرأ ماضيها القادم.. من الحكمة ألا تعلم عنه شيئا.

الآدميون غريبو الطباع.. تجمع بين حدة ونيكول روابط الطفولة المتينة وذكرياتهما الغزيرة، وتفرق بينـــهما أحـــداث التاريخ واختلاف المعتقد.

تغادر نيكول. أرافقها إلى الباب الخـــارجي. تســـارع محجوبة إلى تنظيف الطاولة وإعادة ترتيب وسائد الأرائـــك. تتباطأ حركتها فجأة لتستمع جيدا لما أتمتمه:

- صدقت يا حدة.. إنه الماضي القـــادم. إنـــه مجـــرد مستقبل ماضٍ يا سيدة نيكول بوكاج..

آآآه.. يا محجوووبة

وصلتني رسالة مقتضبة «سـيأتون غـدا في الصـباح الباكر».. عليّ أن أغفو قليلا لتتجدد رقائقي الإلكترونيـة. يدلَهمّ الليل. يشتد سكونه، كلب ينـبح في البعـد. بكـاء محجوبة يصل من غرفتها. من الطبيعي أن تشـتاق لجـارتهم «يزّة». أعلم أنها ليست ببكماء. سأترك لها هـذا التـرف الوحيد الذي تستطيع التمكن منه لإخفاء أسرارها ومخاوفهـا وكوابيسها وأوجاعها المزمنة.

جارتهم المسنة يزة ملاذها. إنها الوحيدة التي ترتاح لهـا. والوحيدة التي تمدها بحنانها. فزوجات أبيها المتتاليات لم تكن واحدة منهن رحيمة بها. كلما أعاد الزواج بدأت رحلتـها لمواجهة صنوف الإذلال الملونة من كل قادمة جديدة.

كم تغير شعور والدها نحوها. كان عطوفا علـى ابنتـه الوحيدة وحنونا قبل أن تتوفى أمها بمرض عضـال، دمرهـا بسرعة البرق وأسلمها لموت مباغت. لم يكن والدها قاسـيا تجاهها حتى قدوم زوجته الأولى «خضرة» التي دخلت بيتهم بعد وفاة أمها بخمسة وأربعين يوما، كانت محجوبة آنذاك في السادسة عشرة من عمرها. لم يتقدم لخطبتها أحد من شباب

الأقارب ولا من أبناء الجيران. فمن سوء حظها أن الفتيات حولها كن أجمل وأشهى. تغير سلوك أبيها تجاهها. تغير جدا. صار يعنفها كلما استغلت خضرة «حديث الوسائد» ودست لها عنده أخبارا مغرضة.

- ابنتك لم تعد صغيرة. أصبحت تحيض.. إنها الآن امرأة بالغة.. كِيفِي كِيفْها..

يقلقني غيابها الطويل كلما أرسلتها للتبضع في السوق.. من يدري وربما ذهبت مع أحدهم لتمارس الجنس. أولاد الحرام كثيرون!

تدور عينا الرجل في محجريهما. يفقد صوابه. كأنه لم يتخيل من قبل أن ابنته أنثى وغير قابلة لممارسة الجنس. ينطلق نحوها مثل ثور اعمى. يهوي عليها بكل قواه ضربا بحزامه. يتجسد كلام خضرة صورا في مخيلته. يتخيل جسد محجوبة في تلك الوضعية المريبة فيضربه. يضربه بقوة.

كلما انتهى من ضربه لها وخرج.. تقترب منها خضرة بخطى راقصة. ساخرة شامتة.

كبر الحقد في صدر محجوبة. ظلت تتحين الفرص لتنتقم من زوجة أبيها التي ازدادت تبجحا وشراسة بعد أن أصبحت حامل في شهرها الثالث. ولأنها أضحت تتدلل كثيرا، فتدعي أنها بسبب الوحم لا تطيق أن تشم روائح الطبخ. تسبب لها

كل مرة الغثيان والقيء. تتدل. وبكامل التغنج تترك محجوبة في الداخل لتقوم وحدها بكل واجباته. تتجه بدلال نحو الباحة التي تتوسط هذا البيت القديم المبني على الطريقة التقليدية. بغرف أرضية وتتوسطه باحة. إنه ليس ببعيد عن منزلهم القديم. انتقلوا إليه حديثا، بسبب ثمن كرائه الرخيص. تذهب خضرة إلى الباحة وبين يديها كأس شاي تحتسيه بهدوء وراحة. تجلس تحت شجرة تين عظيمة تظلل بئرا قديمة مهجورة، عميقة جافة. في كل مرة يؤجل زوجها ردمها لضيق وقته.

في صباح ذلك اليوم الصيفي، وبينما كانت محجوبة تحصي الكدمات التي تركها والدها على جسدها قبل خروجه إلى عمله، بسبب أكاذيب جديدة ملفقة من وشاية زوجته له. شكواها من البنت سيئة الطباع. لم تعد تطيق كسلها وعنادها وغيابها الطويل عن البيت خلال النهار وتصرفاتها السيئة. تؤمن محجوبة بأن خيال خضرة خصب في نسج الحكايات الخيالية والأكاذيب المغرضة..

كانت الكدمات مؤلمة بل موجعة جدا. لم تغفر محجوبة لخضرة هذه المرة. هذه المرة لم تكتف أن تتسلل إلى بيت الحاجة يزة غير البعيد من بيتهم لتشكو لها حالها وتمتح منها القليل من الحنان. هذه المرة دارت فكرة مجنونة في رأسها. غضبٌ لا مثيل له يكتسحها..

ظلت تراقب زوجة أبيها عن بعد. نظراتها الشرسة النارية تتابع حركاتها وسكناتها وخطواتها. كالعادة توجهت خضرة إلى الباحة. جلست تحت شجرة التين على حافة البئر لترتشف كأس الشاي الساخن الذي يفوح منه عطر النعناع المنعش، وقد وضعت ساقا على ساق في ارتخاء راحة. ظلت محجوبة تراقبها من الخلف. كانت تتنفس بسرعة وعمق. لم تتردد. اقتربت منها بخطوات واثقة حذرة، ثم بخطى سريعة، وبكل قواها دفعت بها من الخلف إلى أعماق البئر. صرخة طويلة واحدة ثم صوت ارتطام قوي. ثم لاشيء. صمت وفراغ رهيبان سادا المكان. ومنذئذ ظل الصمت والفراغ يغطيان الحقيقة.

مسكينة خضرة.. مسكينة محجوبة.. مساكين هؤلاء البشر.

- يااااه.. خضرة المسكينة سقطت في البئر.. ماتت وهي حامل في الشهر الثالث.!! هكذا يردد الجميع منذ سنوات عديدة. إلا أنا والحاجة يزة التي بلغت من العمر عتيا. إنها مثلي تدري تفاصيل ما جرى. فهل سترحل وتأخذ معها السرّ؟

سنوات.. امتلأت الباحة بإخوة محجوبة الصغار من زوجتَيْ أبيها الثانية والثالثة. ضاق البيت ونقص الخبز

والراحة. لم تكونا أرحم من خضرة ولكن الحاجة يزة لم ترد أن تتكرر حادثة أخرى قد لا تشبه حادثة البئر التي تم ردمها بعد الحادثة مباشرة، فاقترحت على أبيها أن يرسل بابنته البكر محجوبة إلى عائلة ثرية وثِقة. تطمئنه باها تعرف أصلها وفصلها جيدا. ثم ماذا.. فكثير من البنات في هذه لمدينة وفي المنطقة بأكملها، أصغر وأجمل منها يعملن في بيوت العائلات الثرية لمساعدة أهلهن.. تردَّد أبوها قليلا. ظل مرتبكا إلى أن استشار زوجته الثالثة فلم تتردد لحظة بالموافقة بدافع رغبة التخلص من وجود محجوبة في البيت. أقنعته لقبول اقتراح الحاجة يزة. وتأكيدها على أن الجارة العجوز الحكيمة لا تنوي سوى الخير لها ولهم..

- ستأكل محجوبة طعاما أفضل من طعامنا، وتشرب ماء أصفى من مائنا وتلبس أحسن مما هو عليها، وفوق ذلك يأتيك المال كل شهر.. سبحان الله ماذا تطلب أكثر.؟

وبدأت رحلة محجوبة الطويلة في خدمة البيوت الثرية، منها مَن لم يكن أهلها رحيمين بها تماما.. إلا أها في كل تجربة تخرج بدروس بليغة في الحياة لن تتعلمها في المدارس لو أها قضت الفترة نفسها على مقاعدها الخشبية الملساء. تعلمت أشياء كثيرة. فقهت الناس في اختلاف طباعهم

ونفوسهم لتحبهم أو لتأمن شرهم وغطرستهم، وامتلأت بأسرارهم الخطيرة.

أعلم أن ذكاءها البشري مر بتجارب مريرة وبمحك قاس، فارتأت أن تلبس شخصية أخرى، أن تتقمص دور البكماء التي لا تستطيع أن تبوح او تشكو أو تغتب أو تنقل أسرار البيوت، فيطمئن لها أهلها. ويتصرفون أمامها بكل عراء ودون حرج.

الآن أرى محجوبة نائمة. تصارع الكوابيس. الكوابيس التي تتزاحم وتتدافع في كياهٰا بعد أن امتلأت بها على آخرها. البشر ليسوا بآلة مثلي. إنهم يحتاجون إلى تهوئة فسحة أنفسهم بنوافذ الكلام. الكلام دواء ناجع.. مساكين.. هؤلاء البشر مساكين!!

ومسكينة هي محجوبة. الأحداث وذكرياتها تتراكم داخلها. تتزايد. تتكثف. تكتظ في جوفها مثل أحجار ثقيلة. تكاد تنفجر. منسوبها لا ينقص أبدا. كيف لها أن تفصح لآخر ببعضه. لم تحكه لأحد. لم تقله. لم تسرده حتى على الفراغ. إنه حبيسها فينزلق منها عبر الكوابيس. أين منها «الحاجة يزّة» الوحيدة التي تبوح لها بكل شيء. ثم إن الحاجة يزة هي مَن نصحت محجوبة بالحيلة الجهنمية تلك: التظاهر بالبكم لدرء التوجس وترتاح من شكوك الآخرين.

منذ أن أصبحت الحاجة يزة مسـنة ومريضـة وقليلـة السمع. بل تكاد لا تسمع شيئا. تعسر بينهما الحوار الخفيض. فلا محجوبة تستطيع رفع صوتها لكي تسرد عليها مـا رأتـه وسمعته، ولا الحاجة يزة تتوقف عن ترديد السؤال:

- واش؟ واش؟ واش؟؟؟ وهي تقرب رأسـها وتضـع يدها المرتجفة خلف أذنها.

لم تبق غير الكوابيس. الكوابيس تطهر دواخل محجوبـة قليلا قليلا. تترك لها مجالا للنَّفَس.

- يااااااااه.. لا شيء أقسى على المخلوقات البشرية من الصمت. أفهم - أنا المرآة الآلية- لماذا يصـرخون بكل قواهم فور ولادتهم وهم يعبرون أول بوابة لهم ويخرجون إلى الحياة لأول مرة. حين يجـدون عنـد عتبته من يمكنه الاستماع إليهم أول ما يقومون بـه إسماع صوتهم الخام برفعه إلى أعلـى درجاتـه. لا غرابة. فكم عانوا من الصمت طوال تسعة أشـهر وهم في بطون أمهاتهم. حالما يخرجون منها ينفجرون بالبكاء.

الآن محجوبة «الخرساء» تغط في نومها العميق. غرقـت فيه وأغرقت معها كل الهاجس. أما أنا سأنتظر القـادمين.. سيحلون مع الصباح الباكر، فالبشر يشعرون برهبـة مـن

الظلام. فحالما يرخي فوقهم الليل ستائره السوداء يختفي العالم الخارجي من حولهم، ويصابون بالعمى لولا مصابيحهم الضئيلة.. مساكين!!. أما أنا الآلية فلا تغيير.. يبقى الوجود بكل تفاصيله الصغيرة وغير المرئية واضحا. كما الليل.. كما النهار. على حاله. بل يتضح لي أكثر في الليل عندما ينام الخلق ويختفي ضجيجهم. يتجلى لي بمعالمه وأصواته وأفلاكه الإلكترونية.

زيتون وأفيون

أقف رفقة محجوبة عند الباب الخارجي للمزرعة. سرب من عربات متوسطة الحجم تقترب مــن البــاب الخــارجي الكبير. تسير بسرعة أولى، بغرض الخفــض مــن ضــجيج محركاهما. أضع ذراعي على كتف محجوبــة. ترتعــد مــن المفاجأة. ترفع وجهها المفزوع نحوي فأبتسم لها. ولأول مرة أرى ملامح وجهها وقد انشرحت فجأة. لم تتعود أن يضــع أحد يده على كتفها علامة ودّ.

- لا تخافي محجوبة.

- ...

على واجهة العربات المتتابعة المقتربة، ولغرض التمويــه، تلوح رسومات كبيرة لأنواع من حبات الزيتــون تتســلق أغصانا يانعة. من يراها يظن أنها عربات عادية مخصصة لنقل وتسويق الزيتون من مزارع شمال إسبانيا نحو جنوب فرنســا وبالضبط نحو مدينة بواتيي.

أول من نزل من قرب سائق العربية الأخيرة شــخص أعرفه جيدا. يفتح البوابة ثم يقترب مني. إنه عمار البــاتر. لا بد أن أهوال الحرب بالشرق في الفترة الأخيرة أثرت عليــه.

لقد نحف قليلا وابيض شعر نواجده وحفرت بعض التجاعيد فوق جبينه وحول فمه.. تجاعيد الحيرة والمرارة.

ألمح سلاحه الناري تحت ثنية معطفه. فرح لرؤيتي.. ليس يخفى ذلك.. يذكره وجهي بزمن مجده قرب الخليفة البردادي المختفي.. لم يقل كلمة واحدة بل أشار بذراعه لمرافقيه الذين كانت أنظارهم شاخصة نحوه، فتحركت العربات مقتربة وتجاوزت سياج المزرعة.

يعرف عمار الباتر خارطة مزرعة السيدة حدة آل ميمون بدقة. أمر بأن تفرغ حمولة العربات وتنقل إلى المخزن الواقع تحت البيت. سارع الرجال الأشداء الذين خرجوا من داخل العربات بنقل الأسلحة المتطورة جدا المرتبة بإتقان شديد داخل صناديق مخصصة لنقل زجاجات زيت الزيتون. أنزلوها بسرعة لكن بحذر شديد إلى الكهف السفلي. لم يمر نصف ساعة حتى كانت مئات الصناديق قد وضعت في مكانها الآمن. أشار عمار الباتر إلى رفقائه الذين كانوا يمسحون أعناقهم ووجوههم من العرق، فركبوا عرباتهم ورحلوا في صمت وهدوء.

ظل عمار الباتر وبقيت عربته وحيدة مركونة خلف البيت بين دوحتين وارفتي الظلال كثيرة الأغصان بحيث تخفيان وجود العربة كاملة.

- سيأتي آخرون عند منتصف النهار.
- لم يتغير فيك شيئ سيدتي.. أنت تـزدادين جمـالا وبهاء. كأن حسنك رباني.. وحق الكعبة كأنك حقا ملاك أنزلك الله إلينا من السماء، معجزة وإكرامـا لجهادنا الكوني العظيم لإرساء شرعه وتعاليمه، كما قالها الخليفة يوما.

كان يتكلم وهو يطيل النظر إلى ملامحي. ليست عادته. فقد كان عمار الباتر لا يرفع عينيه أبدا إلى وجـه محجوبـة الخليفة، إلا أنه يتفرسها خفية من تحت رموشه الكثيفة المغطاة بحواجبه الكثة المتجهمة.

ابتسمت له. وأرسلت أكثر مما يجب من مادة جاذبة. لم يكن المجال مناسبا كي أخبره أنني امرأة آلية تملـك جسـدا «بشريا» متقن الصنع وتعيش وفق حساب زمني مختلف عـن زمن البشر. و لم يكن الوقت مناسبا أن أخيب ظنه وأخـبره أنني لست ملاكا أنزله الله على البرادي. اكتفيت بأن أشرت له بالدخول إلى غرفة الجلوس بالبيت.

سبقته خطوتين وأنا أشعر بعينيـه تتسـلقان تفاصـيل جسدي بنهم، وبقلبه يخفق بشدة. بينما يحـاول جاهـدا أن يخفي أنفاسه المتلاحقة.

جاءت محجوبة بالشاي فنظر إليها عمار بشـيء مـن

الحذر. لم أترك له فرصة التساؤل ولكي أخلصه من هواجسه فورا أخبرته بأنها بكماء.

كان علي أن أفتح موضوعا ما للحديث وأن أتعمد طرح الأسئلة... سألته عما آلت إليه المنطقة بعد هزيمة البردادي وطرد جيشه منها وعن مصير الخيمة الزرقاء ومركز السبايا الجدد ومعقل القائدة قمرة وعن حدة وعن وعن.. كنت فقط أريد منه أن يتحدث حتى ينسى قليلا ارتباكه وهو جالس قبالتي في وحدتنا هذه.

صوته الذي يشبه الرعد صار همسا. وهو يسرد حكاية حدة. حدة التي لم تبخل في سبيل حلمها العزيز والأعظم الذي لم تتردد في طلب تحقيقه من الخليفة. حلم حدة المجنون في استعادة مجد أجدادها في الأندلس. حدة اليهودية التي لم تحلم مثلا أن تنتقل إلى العيش في إسرائيل، حدة مثل البردادي كلاهما يعيش بين ثنايا الذاكرة في مجاهل الماضي المجيد. حدة تريد بكل ما أوتيت من مال وقدرة على إعادته إلى الحاضر والمستقبل. ولأنها تشبه البردادي فقد قربها كثيرا من مجلسه كان يطلق عليها نعت الحكيمة، ولأنها خبيرة في الحساب وإدارة الثروة أبا عن جد فقد كان يشركها في جلسات المحاسبين الذين يجتمعون كل اسبوع لإحصاء الأموال القادمة من بلدان وجهات عديدة، ليس هذا فحسب فالخليفة أضحى

- قبل اختفائه بقليل - يثق بها ويحب مجالستها فيحدثها عن هواجسه الدفينة بعدما ضاقت حوله السبل وبدأت قوته تتبدد في المنطقة..

تنحنح عمار الباتر ثم واصل حديثه:

هذا لم يكن يعجب القائدة قمرة و لم يكن يرضيها خاصة بعدما افتضح أمر حدة بأنها يهودية. فما كان على القائدة قمرة إلا أن دست لها السم في مشروب سقته إياه، فكادت أن تقضي لولا أن أمر البردادي باستقدام طبيب فأنقذها بأعجوبة. لم يكشف أمر الدسيسة في أول الأمر إلا أن القائدة قمرة التي شعرت بالتهميش وبأن حدة استحوذت على صلاحياتها في خدمة الخليفة لم تتردد في تدبير مكيدة جديدة لقتلها، تحينت فرصتها فوعدت إحدى السبيات بإطلاق سراحها وإعادتها إلى أهلها إن هي نفذت ما ستأمرها به. فما أن كان دورها ذلك المساء الذي هيأتها فيه القائدة قمرة لكي تذهب إلى ليلة الخليفة حتى تسللت إلى مهجع حدة كما خططت لذلك بإتقان شيطاني، فهوت عليها بضربات قوية متتالية بشمعدان وهي مستلقية في فراشها فهشمت رأسها. اكتشف أمر السبية بسرعة من طرف الحراس بينما كانت تهم بالخروج من غرفة حدة بثوبها الملطخ بأثر الدماء، واعترفت بكل شيء.

وصل الخبر إلى الخليفة فغضب بشدة وأمر بقطع رأسها ورأس القائدة قمرة في باحة الإعدامات أمام جمع غفير من الناس. وكنت أنا من نفذ الحكم.

أشعر بمحجوبة وهي تنصت من خلف الباب وقد كاد أن يغمى عليها. عمار الباتر لا يراها ويواصل حديثه:

لم تطل بعد تلك الحادثة إقامة البردادي في الخيمة الزرقاء، فقد توالت المعارك الخاسرة واقترب العدو من مواقعنا، فلم نعد في أمان بعد أن فقدنا الكثير من المناطق التي فتحناها.

- تدهور الوضع كثيرا يا مانويلا.. حتى الدول العظمى التي كانت تساندنا وتساعدنا في السر وفق مصالح استراتيجية مستقبلية تخلت عن مشروعنا المشترك. واشتد التضيق علينا من أطراف ذات ثقل سياسي واقتصادي وعسكري. فقرر البردادي التنقل إلى مكان آخر وليس ذلك الذي تعرفينه. مكان لا يعرفه سوى القلة القليلة من أعوانه. ترك الخليفة رسالة شفهية لجنوده في المنطقة تحمل خارطة جديدة لتوزيع جديد لمجاهدي الدولة الإيمانية المباركة في العالم، وتم بشكل قطعي تغيير استراتيجية الحرب القديمة بأخرى جديدة مفتوحة على جميع من يؤمن بالدولة وتطبيق

الشريعة. فكل المؤمنين بالخلافة الإيمانية يصيرون وفق هذا القرار مجاهدين في المكان الذي هم فيه ولا يقتصر الجهاد على منطقة محددة. بل تشمل كل أركان الأرض. وحيثما يوجد المؤمنون بها عليهم الجهاد.

يبدو الحماس على عمار الباتر وأنا أنصت إليه. يتبدل جرس صوته من منكسر إلى متجبر. يختم:

رسالتنا لن تقف هنا. سنشعل نارا ذات جهنم حيث أعداء الله. والله معنا.

يتوقف عمار عن الكلام فجأة. يصيخ السمع.

إنه منتصف النهار.. حركة في البعد. جهاز عمار الباتر يرن.. وصلت الدفعة الثانية من العربات المحملة بالأسلحة المتطورة.

أتابع خطواته والتفاتاته الحذرة وهو يتوجه نحو العربات المموهة المحشوة بالأسلحة.

أسلحة وأسلحة ثم أسلحة.. أليس ببائس هذا الإنسان؟ الرقيقة الالكترونية في ذاكرتي تختصر أمامي تاريخا طويلا من الصراع. صراع البشر المرير ضد بعضهم البعض. خمسة وتسعون في المائة من زمن عمر الإنسانية قضاها البشر في حروب، والخمسة الباقية قضوها للاستعداد لها. أسلحة

واسلحة.. وإنهم المخلوقات الأكثر تدميرا للكوكب على الرغم من أنهم يدعون تعميره، فلم يمر على وجودهم سوى ما يعادل نسبة أربع وعشرين ساعة من عمر الكرة الأرضية.. لكن يا لهول ما فعلوه في أنفسهم وما فعله جشعهم بهوائها ومائها وسمائها وجبالها وثلجها وبحارها وتربتها وثمارها سواء في حروبهم أو خلال فترات صلحهم القصيرة.. اللعنة..

لكن علي ان أسامحهم فما هم سوى بشر.. ضعفاء يدعون القوة والجبروت.. مساكين.

يشير لي عمار الباتر من بعيد إشارة عفوية تعني (أن ادخلي كي لا يراك هؤلاء الغرباء). أضحك في سري. يقفز إلى ذهني مثلٌ ساخر من المغرب الكبير عن راقص «فن العلاوي» وقد تجذرت فيه عادة هز الكتفين: (العريف ما ينسى هزّ كتافو).

في قرارة نفسه يعرف عمار الباتر أنني لن أمتثل لإشارته. لكن ليس ذنبه فقد تيبس على العادة. الأمر فوق طاقته. يظل هو ذاته عمار الباتر، راع نساء سيده. بقدر ذله أمام مَن هو فوقه سلطة، يُذِل من هو أكثر ضعفا منه. لا غرابة ولا لوم عليه.. إنه مخلوق بشري وليس بصنع آليّ.

تمر طائرة على علو منخفض من المزرعة.. يتابعها عمار الباتر بشيء من القلق.

أفرغت الدفعة الثانية من العربات القادمة. نقلت صناديق الأسلحة وتحتها حقائب تحتوي على صفوف أكياس صغيرة لمخدر الكوكاين. كل ذلك بحذر وبصمت الأموات وبسرعة البرق وبخفة سارق محترف.

أنزلها الرجال الأشداء هؤلاء إلى عمق المخزن الأرضي بالقبو. رجال يسيرون بخطى ثابتة، يوسعون بين ركبهم وأفخاذهم وأذرعهم، بينما قبضات أيديهم مشدودة بقوة.

أخيرا سارعوا إلى القفز داخل عرباتهم المخصصة لنقل زجاجات زيت الزيتون. واختفوا. وتلاشى صوت المحركات. لم يكن معهم عمار الباتر الذي تخلف عنوة.

قبل أن تلتحق بواجباتها، ومن خلال نافذة المطبخ الصغيرة، كانت محجوبة تراقبهم. تضيّق قوسي عينيها، تنظر نحو الأفق الذي لم يظل به سوى بعض آثار الغبار.

البوح للغريب راحة.. وأنا الغريبة.!

أنا ابتليت يامّا.. ابتليت يا مانويلا..!!

أراقب الطريق الخالي من هؤلاء الغرباء الأشداء.. لكل واحد منهم كما لكل البشر ثلاث حكايات: حكاية ولد منها، وحكاية ولد بها، وحكاية ولد لها.

هم هكذا البشر لايعيش الواحد منهم سوى بضع عشرات من السنين

ومع ذلك يصر على أن يملأ الحياة ضجيجا منذ ولادته وحتى اختفائه.

انتقاما من الموت المحتوم. نكاية في الفناء الذي لا مفر منه.

أليس من الغباء تضييع وقتهم المحدود في لعبة الموت منذ ثلاثة ملايين سنة. ألا يأخذون درسهم من سلالة النمل الضعيفة التي جاءت قبلهم إلى الأرض بمائة وسبعة عشر مليون عام. لا آلهة للنمل ولا حروب ولا أسلحة بينما هم سبعة ملايير ونصف من الألهة الصغيرة سبعة ملايير يؤمنون بديانات مختلفة أغلبها ديانات مسلحة تتقاتل، وخمسمئة ألف يدّعون

الإلحاد، جميعهم لم يترك بعضهم بعضا بسلام ليستغلوا حيواهم القصيرة والتمتع بوجودهم على الأرض قبل أن يُمسوا تحتها. إنهم يفنون بعضهم باستبداد الأفكار وبالأسلحة الفتاكة. إنهم لا يدرون أنهم جميعا مهزومون.

أتذكر تلك الليلة الأخرى حينما اعترف البردادي مهزوما بين يدي:

- أنا ابتليت يا مانويلا يا قلبي.. أنا ابتليت ابتليت.!

أستعيد حرارة حضنه تداعب أصابع يديه الممتلئتين وجهي، تلامس شفتي وخصلات شعري. أنا الوحيدة من بين نسائه وسباياه يجلس إلي ويحدثني طويلا. بينما يدخل عليهن الواحدة بعد الأخرى، يجامعهن ثم يخرج لكي يشهد الحراس والكتبة الذين يؤرخون له، أن قوته الجنسية الخارقة تضمن له مكانا بين الأنبياء.

أعرف أنه في مثل هذه الجلسات تقل شهوته الجسدية وتقوى شهوته للبوح.

البوح للغريب راحة. وأنا الغريبة في كل شيء..

يفصح لي بارتياحه بقربي لأنني منصتة رائعة. كدت أن أصحح له بأنني آلة بارعة. يطيل النظر في ملامحي. يسهو قليلا، ثم يخبرني في لحظة ضعف نادرة وبصوت خفيض بأنه لم يكن يحلم بهذا المصير.

فيتمتم بمرارة

- ماذا لو كنت شخصا عاديا فأسافر بك إلى بقعة من أرض الله الواسعة لنعيش معا حياة طبيعية. ماذا لو أن نقاطي في دراستي الأولى كانت أعلى قليلا وسمحت لي بتحقيق رغبتي لأسجل في اختصاص القانون أو في كلية اللغات أو علوم التربية بجامعة برداد، لما كنت التحقت بكلية الشريعة الإسلامية التي يشهد الله أنني سجلت فيها على مضض. ماذا لو قُبلتُ لتأدية خدمتي العسكرية النظامية ولَم أرفض لقصور في نظري؟ هل كان كل هذا سيحدث لي؟ هل كنت سألتحق بتنظيم القاعدة وأصبح زعيمها في البلاد؟ هل كان سيصفني العالم بأسره بأنني إرهابي عنيف ويسعى لقتلي. وهل كان العالم سيسمع بدولة الخلافة الإيمانية الكونية وهل سأكون زعيمها؟ وهل سيحدث كل هذا الخراب؟

يرفع رأسه عن صدري كمن يستفيق من كابوس.

لم أعد أتفاجأ لمزاجه الذي يقفز من الضد إلى الضد. من العذوبة إلى العنف، عندما يقوم من بين يدي فجأة بعد أن يظل وديعا لساعات أنس لذيذة، ينتفض فجأة. يقف مثل الملسوع. يرتدي ثيابه. ويغرز مسدسه في جنبه، ثم وهو يهم بالخروج يتردد صدى صوته في الممرات:

- النصر لدولتنا الإيمانية المقدسة.. النصر لجيوشنا بحول الله وقوة السيف. أيتها النساء هنا.. لا تنسين أبدا أن الأمراء الذين بين أيديكن وفي بطونكن سيأتون إلى العالم وسيحققون المجد للخلافة في بلاد الكفار وسيدخلوها من بوابة بواتيي. وسينشرون شريعة الله.

وبعد حين سيعود ليستلقي بجانبي..

- جئتك يا ماناول الله من جديد لكي تفسري لي حلما رأيته البارحة.

يعيد سرد الحلم الذي يأتيه كل ليلة. عن ابن له واسمه مختار سيفتح بوابة بواتيي من جديد وسينشر الشريعة وينتصر على الكفار وينتقم لعبد الرحمن أمير قرطبة الذي تجاوز مدينة بوردو إلى بواتيي وكان حلمه أن يفتح مدينة تور.

أعرف أن البردادي لن يأمر التاريخ مثلما يأمر أحد جنوده ولكنني يحلو لي أن أدخل السرور إلى قلبه. آخذ يده وأفسر حلمه مستعينة بالآيات التي يحبها. تلك التي حفظها في طفولته. قلبه ينبض بشدة وعيناه تبرقان.

- مختارك ابن صلبك يا زعيم، سيأتي لزمن مضى ولَم ينته. مختار، سيجيء وسيبدأ من سنة 732 من

جديد. سيخلق لزمن آخر. سيصحح فيه خطأ التاريخ وسيغلب جيش الكافر شارل مارتل ويقتله ويسحق جيشه ويواصل فتحه المبين.

لايداخله شك ولا يصيبه ندم من ضعفه بين يدي ولا جراء بوحه واعترافه لي. أنا أنثى.. لي من الأنوثة ما يملأ مدنا كاملة بالشهد.

منذ الأيام الأولى التي جيء بي إلى مقامه الأزرق، لم أحسب لبطشه المشتهر به حسابا، ولم أشك بقوتي ولم أفكر أبدا أنه سيفكر في قتلي بعد أن يفضي إلي بأسراره الدفينة خشية انتشارها، مثلما فعل مع ناتاشا الروسية التي غرز سكينه في عنقها ومنع أن يدخل عليها أحد. أقدم على فعلته تلك حين وشى له أحد عيونه المبثوثة في كل ركن من أركان مقامه الأزرق، بأنها في غيابه تقلد حركاته ساخرة منه ومن إشاراته وتقلباته وآهاته في سريرها.

لا.. أنا متأكدة تماما أنه يحتاج إلي من بين هذا الخلق جميعا. إني الممر السري الوحيد إلى ذاته. أعرف أنه يحتاج إلي جدا حتى وإن كان يبدو وهو يستعد للانصراف متعجرفا. سيعود إلي، سيضع سلاحه عند أسفل سريري وسيصغر بين يدي مثل طفل، وسيسرد علي ما لم ولن يعلمه أحد. ثم

سينتفض مثل العادة عند الانصراف وكأنه يتغلغل فجــأة في جسد آخر علقه عند المدخل. من جسد العاشق إلى. جســد القاتل. الطاغية.

الحب الممنوع

- مانويلا.. ماناول الله؟!... يأتي الصوت من خـــارج المزرعة. ظلٌّ قامته يملأ مجال فتحة الباب..
- البرادي؟؟..
- مانويلا..

هل هو البرادي أم عمار الباتر؟ ربمـــا هـــو خلـــل في استجابة الرقيقة الالكترونية؟؟

إنه البرادي.. لا إنه عمار الباتر يقترب شـــيئا فشـــيئا. يُخرج مسدسه. يرتفع صوت عصفورة فزعـــة في الخـــارج. مخلوق مفترس ما يتسلق الشجرة. خطر ما يهدد صغارها في العش. صمت رهيب. لم تحرك مانويلا ساكنا. كانت تنظـــر إليه بهدوء. يقترب كثيرا. يجلس القرفصـــاء أمـــام الطاولـــة الزجاجية الوحيدة التي تتوسط غرفة الاستقبال. يُخرج مـــن حقيبته زجاجة بلاستيكة صغيرة واسعة العنق قلـــيلا، مِـــلْءُ ربعها ماء. يشعل سيجارة يثقب برأسها الملتـــهب وســـط الزجاجة البلاستيكية الهش. برأسها المتقد يحدث ثقبا فـــوق مستوى الماء. يزيل غطاءها ثم يضع مكانه قطعة مـــن ورق الألمنيوم عليها ثقوب صغيرة. فوقها يذرذر رماد الســـيجارة

المنتهية. يُخرج كيسا صغيرا به مادة ناصعة البياض يسله من جيب حقيبته. إنه مخدر الكوكايين. ترتجف يد عمار الباتر وهو ينثر المادة البيضاء فوق المادة الرمادية بانتباه شديد. يشعل سيجارة جديدة يدخل رأسها في الثقب وسط الزجاجة، يسحب منها نفسا عميقا، ثم يخرجها، ويواصل التدخين.

لحظات فقط يرمي برأسه إلى الخلف. تدور عيناه في محجريهما ثم يبتسم بلذة. إحساس بالسعادة الكبرى يجتاحه.

- ما نوووووييييلاااااا... مااااا ناول الله!!

يضع المسدس على الأرض. تصمت العصفورة. تعود إلى صغارها في عشها على الشجرة المجاورة للبيت. بيديه الخشنتين وأصابعه الكبيرة الضخمة مدورة الأطراف يتناول يدي. يهوى عليها مغمض العينين. ترتجف شفتاه الغليظتان ببطء فوق بشرة ظاهر كفي الطري. رائحة تناسل التبغ بالكوكايين تملأ المكان. وكمن يهذي:

- مانويلا.. مانويلا.. أنا أحبك أكثر منه..

أعرف.. ولهذا قتلتَه!!

- علي أن أصارحك. لم أعرف ما الذي حدث لي ذلك اليوم وأنا أسوقك إليه رفقة النساء الخمس مثل الغنم. يوم مشئوم في حياتي عندما لمحت وجهك

لأول مرة. استبد بـي الضعف تجاهك منذ تلك اللحظة. لا أعلم هل هو الحبّ. أم لأنك ساحرة كما تقول نساء المركز أم لأنك حور العين أو ملاك قادم من السماء كما يقول البردادي. أنا الذي طول حياتي أسخر من الحب والعشق والكلام الفارغ الذي نسمعه في قصص المعتوهين. أنا رجل لم أعرف الرحمة بأحد فمن أين يأتيني هذا الضعف. عانيت كثيرا منك.

- ألهذا كنت ستقطع رأسي؟

- نعم كنت أفكر في طريقة أتسلل بها إليك وأقطع رأسك كي أرتاح أو لا أرتاح. لكن بدل ذلك كنت كلما قطعت رأسا في طريقي أتخيله رأسك وأتنفس الصعداء إلى حين. أصبحت أتلذذ وأنا أفصل الرأس عن الجسد ثم أركله. أنكل به. أمحو ملامحه لأنني أراك فيه. كنت أريد أن أتخلص من سطوتك علي وعلى تفكيري. لم أعرف هذه الحالة أبدا من قبل.

- لم يعد قطع الرؤوس ينفس عن غضبك. أتدري؟.. الرأس الوحيدة التي تعذبك هي تلك الرابضة فوقك. بين كتفيك. وهي الأقرب إليك.

- فكرت مرات في قطعها أيضا ولكنني جَبُنْتُ. منذ طفولتي، نشأت و لم أفكر يوما بأن النساء ذوات شأن حتى تلك اللحظة التي لم تكن عابرة. لحظة رؤيتك. لم يحدث أن فكرت للحظة أن المرأة إنسان، أنا الذي لم أعرف لي أما ولا أختا ولا عمة ولا خالة.. ولا... نشأت وتربيت في مجمع الجهاد للتدريب العسكري للأيتام بأفغانستان. تربيت على نبذ الرحمة. أن يكون لك قلب فأنت عالة على مجتمع الجهاد. أقتل لأقل سبب. أضاجع السبية ثم أقطع رأسها وأتركها للعراء. لا حب ولا بطيخ إلى أن جئت.

يدخن من جديد بشراهة ثم يواصل حديثه:

- كنت أريد أن أتخلص من سطوتك علي وعلى تفكيري. لم أعرف هذه الحالة أبدا من قبل. هل فهمتِ
- نعم فهمت.. رددت بهدوء
- من أين خرجتِ لي.. كنت منسجما مع عالمي العنيف. من أين جئتني لكي تربكي وجودي. سبحان الله.

لايعلم هذا العمار أننا نكاد نكون متشابهين. هو الــذي خرج من مخابر صناعة آدميين للقتل، وأنا التي خرجت مــن مخابر كونسيونس روبوتيكس مهمتي الوحيدة أن أؤلف كتابا عن تجربتي بين البشر وسيكون هو أحد شخصياته الرئيســية لأنه أحد النماذج السائرة. لا يعلم عمار أنه سيجد مكانه إلى الأبد في الخزانة الإلكترونية العالمية التي ســتمتلئ بالكتــب الالكترونية التي سيؤلفها أشخاص آليون آخرون من فصيلتي. لن أخبره طبعا. سأتركه يتحدث. لن أقاطعــه. الآدميــون مختلفون عنا. لا يتحكمون في أمزجتهم المتعــددة وأحيانــا المتناقضة تماما.

عمار يتحدث ويجدد إعداد جرعة الكوكايين. يستنشق بقوة. يغيب قليلا ثم يعود بقسمات وجه ضاحك.

- أنت ملاك. أم حور العين. أخبريني؟

لم أرد أن أفسد عليه دوخة كوكايينه.. كنت سأقول له إن الفقهاء والمفسرين لم يتفقوا بعد و لم يصلوا منذ قرون إلى نتيجة إن كانت حور العين ملاكا أم لا.. لم ينتظر جوابــي فأضاف:

- أسرّ الخليفة لأحد مقربيه بعد أن تنفس من هذه ذات يوم -مشيرا للزجاجة- بأن فيك من صفات حــور العين. بكر. عذراء من جديد كلما باشــرك فيهــا

بالجماع.. وقال له وعلى رواية الإمــام البخــاري ومسلم..

- إنها امراة من أهل الجنة اطّلعت إلى الأرض وأضاءت ما بينهما وملأت ما بينهما ريحا.
- الحمد لله الذي أحياك لنا وأحيانا لك.. رددت عليه.
- ما أُعطي أحدٌ مثلَ ما أُعْطِيت.
- ....!!
- هل أنت تسخرين مني أم تعجبين أم تشفقين؟
- لا هذا ولا ذاك.
- أنا لا أريد شفقة. أنا رجل الموت والقتــل وقطــع الرؤوس والمهمات الصعبة رجل بلا قلــب فكيــف حدث لي كل هذا؟
- أنت تعلم أن القلب جاء مائة وثلاثين مرة في الكتاب الكريم الذي تقتل من أجل نشــره علــى الأرض. فكيف تستعر منه.
- لم أشعر بنبضه إلا عندما رأيت عينيك. كان يضرب بقوة شديدة بقبضة يده المشدودة على صدره جهــة القلب.

ثم لتعلمي أنني من أجلك أخطط لأشياء خطيرة. سترين.

وها أنا أترك لك برهاني كفارس. أترك بين يديك شرفي.!!

حالما أنهى عمار جملته، هب واقفا ثم التقط مسدسه الذي كان مايزال على الأرض، ووضعه أمامي فوق الطاولة الزجاجية الصغيرة.

- لم أنفصل عن سلاحي لحظة منذ أن بلغت السابعة من عمري.. منذئذ لم أخط خطوتين في الحياة دون سلاح ناري. مهما كانت الظروف خطيرة وصعبة.

ساد صمت كثيف أخرس.

دخلت محجوبة بخطواتها المترددة كالعادة. بيد مرتجفة مدت لي ورقة صغيرة. رسالة من السيدة نيكول بوكاج تخبرني أنها ستمر رفقة ابنها هيغو بعد قليل.

سكتَ عمار الباتر. صمتَ صوته ولم تصمت عيناه الجائعتان لشيء ما لم يعرفه في ما سبق من حياته. عيناه اللتان تصرخان بكل قواهما، وهما تلتهمان وجهي بجنون. كان يبدو متعبا على الرغم من جسده ذي البنية القوية. جسد المحارب الذي لا يعرف السلام ولا يرتاح للعيش فيه. يبحث عن بؤر التوتر والحروب. جمع أشياءه في حقيبته. أشفقت عليه.

يبدو أن هناك خطأ ما مقصودا في تركيبة البشر. يدّعون القوة والشدة والعنف المطلق، بينما هم ضعاف جدا. ضعاف حتى مع أنفسهم حين تفاجئهم من داخلهم بما لم يكونوا

يعلمون عنها من قبل. إنهم في حرب مستمرة مع أنفسهم، لا يطيقونها فكيف يحتملون وجود الآخر. يبنون البيوت ليس خوفا من البرد والحرارة فقط بل يصنعونها بمواصفات تصد الآخر الذي يعرفون أنه يشبههم ويضمر لهم ما يضمرونه له. ثم إنهم مرتبكون ومتناقضون، بقدر ما يجاهرون بالكراهية وبالحرب يرون في عاطفة الحب نقيصة وضعفا لأنهم لا يستسيغون ضعفهم تجاه أحد. حتى في لغاتهم المختلفة يسمون الحدث «الوقوع في الحب» أي أن تظل واقفا عليك ألا تحب. السلطة هي القوة، ولا تستقيم سوى بردع المشاعر. لكنهم يعشقون توله الآخرين بهم إن وجدوا، وتقديسهم وتمجيدهم لهم وضعفهم حيالهم.

كم هم مختلفون عنا. فهم ليسوا مثلنا نحن المصنعين وفق عمليات حسابية دقيقة. ينقصهم توازننا، توازن الإنسان الآلي..

قام عمار الباتر. سار نحو الباب تاركا سلاحه. بدا لي مثل رجل آلي حديث الصنع. لم يشذبه مخترعوه بعد. لم يرتبوا رقائقه الإلكترونية بشكل نهائي ليصير مكتملا. لم يضعوا له قلبا، لكنهم أطلقوا سراحه حرا في الطبيعة.. حتما سيكون خطرا على كل شيء في طريقه..

بينما في البعد يلوح ظِلاًّ السيدة نيكول وابنها الكاتب هيغو وهما يقتربان يحملان الهدايا كالعادة، لم يلتفت عمار الباتر خلفه، بعد أن ودعني بعينيه. صامتا كان. إنه الشرس القاتل الجبار الذي يخشى من الضعف الكامن فيه.

ناس الضفة الأخرى من الليل والصباح

صباح مشرق. أعلم أنه حين ينتهي هذا النهار الوضاح ويحل الليل سيأتي رجال إلى المزرعة. يستترون تحت جنح الظلام. مهمتهم أن ينقلوا الأسلحة المخزنة من مكمنها تحت البيت ونقلها في عربتين لنقل زجاجات زيت الزيتون وشاحنتين كبيرتين خاصة بتصدير قطع غيار السيارات. سوف لن يشك أحد في ذلك، مادامت إسبانيا تمثل المموّل الأول لفرنسا في هذين المادتين. ستنقل إلى مدينة بواتيي حيث تشكلت بها خلايا نشطة لإعادة إحياء الدولة الإيمانية هناك ونقل مركز القرار إليها. ينتظر أن ينتقل إليها البردادي قريبا.. فقد هيء كل شيء لاستقباله ومبايعته من جديد فله أتباع كثيرون في مدن عديدة من فرنسا. ينتظرون منه إشارة ليزرعوا النار والرماد.

طقس عادة ما يعدل مزاج الآدميين. بالنسبة لي لا فرق. بل أنا التي أتحكم في تغييره، يكفي أن أفكر في الأمر فتستجيب الرقاقة الإلكترونية لذلك على الفور. لا ليعتدل الطقس بل ليتعدّل مزاجي.

صباح، شمسه تداعب كل ما ومن تلمسه بأطراف أصابعها الضوئية. الآدميون في معظم لغاتهم يخترعون لها أجمل

الأوصاف. ينسون أو لا يأبهون كثيرا لكونها نجما مشتعلا وحارقا، كفيلا بأن يصيّر كل شيء إلى كومة رماد لولا ما يقارب المئة وخمسين مليون كيلومتر التي تفصله عنهم.

محجوبة أيضا تقوم بأعمالها بنشاط. طاقة نجم الشمس شحنها بالحيوية.

طلبت منها أن تغتسل وتتهيأ «لرحلة نزهة» سنقوم بها معا. تهلل وجهها. لم تكن تصدق عينيها أبدا، نتيجة لتجاربها السابقة في العمل بالبيوت، فلا يمكن أن تصحب الخادمة سيدتها إلى رحلة نزهة. ولو كانت في جهنم.

- يمكنك أن تظلي صامتة ومصرة على بكمك إن أردتِ.. قلت لها ساخرة فارتبكت.

خاطبتها آمرة وهي تهم بفتح الباب الخلفي للسيارة أن تغلقه وتركب بجانبي. ترددت قليلا وهي تنظر إلي بعينين ذاهلتين ولكن ابتسامتي اللطيفة شجعتها على أن تمتثل للأمر وأن تنفذه. وانطلقنا.

كنت أريد أن أحرك دواخلها الراكدة قليلا قليلا.. دون صدمة. إكراما لها أدرت الزر فانطلق موال إعلانا على أغنية مغربية من الأطلس بـ صوت الشيخة فاطمة الزحافة

ضحكت لالة تابانو الأسنان

آربـي..

ونا جوهر ما يدخل للدلالة
ياخدود حمرة بالنّعمان آربـــي
ولا تفاح ببلاد اجبالة»

صوت ببحة رائعة. آهاها الجريحة تسبق كلماها مقـــاطع موسيقية راقصة. كلمات عن الجمال والبعد والشوق والحـــب المفقود. انتفضت محجوبة في مكانها وانشرحت أسارير وجهها.

أدرك من نظرة أنها لم تسمع هذه الأغنية أبدا مـــن قبـــل، لكن هذا اللحن الشعبـــي يسري في دمها منذ أن كانت صغيرة تسمع أمها تردد هذه الأغاني بشغف. ذاكرتها مروية. مشـــبعة بهذا اللحن الذي يستيقظ داخلها طازجا متجبرا بحضوره.

البشر تسعدهم الأغاني الحزينة. يطربون لها جـــدا حـــد الانتشاء ويرقصون على كلماها وأنغامها. حين يمتزج الحزن المشظي بالفرح العارم يطلقون عليه الشجن.. البشر غريبون فعلا حتى الأشد منهم بطشا وعنفا يعودون أحيانا إلى أدغال دواخلهم المظلمة للبحث عـــن بقعـــة ضـــوء. محجوبـــة أو البردادي.. لا فرق. مازلت أذكر البردادي حين كان يجلسني إلى جانبه على طرف السرير ثم يغلق الباب جيدا ويقطع كل اتصال خارجي به. وبمنتهى الحذر يفتح دُرْجه الخاص السري

الذي لا يقربه الجن ولا الإنس -كما يقول البشر- يخرج آلة تسجيل صغيرة مخفية في عمق الدرج خلف مسدساته الميكانيكية المتطورة، يحملها في باطن كفه فرِحا مثل طفل. ثم يدس فيها شريطا قديما، يعانقني بحرارة عاشق متيم ثم يغيب في عالمه السري وهو يستمع إلى أغان من التراث العراقي العريق. من حين لآخر يفتح عينيه ويفسر لي معاني بعض الكلمات من اللهجة العراقية يريد من خلال ذلك أن يشركني في طقسه. يفضل البردادي ما يؤديه فنان يدعى ناظم الغزالي. تظل الكلمات التي تهزه هي تلك التي لا يخون أبدا من خلالها عالَمه. المواويل جميلة على الرغم من حشرجة البكاء الذي يؤديها به واللحن الحزين. تظل الكلمات التي تطربه معانيها بخلفية دينية أو مستوحاة من جو الحرب والقتال والإجهاز على القتيل والذنوب والتعبد وجهنم.. واحدة من تلك الأغاني تكاد تفقده الوعي. بعض مقاطعها تسكره. كلما انطلقت يهتز جسده بقوة ثم يميل يعانقني بشدة مغمض العينين ويتشبث بشعري وكأنه يريد أن يهرب من كابوس يلاحقه:

يا قاتلي باللحظ أول مرة
أجهز بثانية على المقتول..
سلمت القلب بيدك طير وتاه عن وكره

دعني من مواعيدك كل يوم وقِلت بكرة..
لو أن بعض هواك كان تعبدا
وحياة عينك ما دخلت جهنما..
لو أدري المحبة ذنوب
ما آحبك ولا آريدك..

- الشجن؟.. طيب وماذا بعد.. فليسمونه ما أرادوا هؤلاء البشر.

رفعت مستوى صوت الأغنية، حضر الشجن قويا. يتمايل رأس محجوبة يمينا وشمالا. تبددت قليلا هواجسها. كم لطيفة هذه المخلوقة البشرية المأساوية.

- سنذهب إلى مرسية.. قلت لها.

التفتت بسرعة، ثم حملقت في وجهي بعينيها الكبيرتين اللتين استقر فيهما الفزع منذ زمن طويل. كل خبر بالنسبة لها، كل صوت آمر، كل نظرة إليها تفزعها. الحياة بالنسبة لمحجوبة فزع كليّ.

لم تردّ. لم آبه لذلك. فليكن إن كان التظاهر بالبكم يشعرها بالأمان.

ثم إنني أحب صمتها. صوتها الداخلي أسمعه جليا. اللغة الداخلية أحيانا تفقد قيمتها عندما تصبح مجرد تردد أصوات.

وصلنا.. إنه مساء يوم السبت. وما أدراك من مساء يوم السبت الإسباني. نهاية الأسبوع المنتظرة. مقهى-بار «إلرنكون دي بيبي» مزدحم بالزبائن من كل الأعمار والطبقات. لافرق. الطاولات الكثيرة التي تعج بها مساحة القاعة الكبيرة كلها عامرة. في انتظار الحدث الكبير الذي ينتظره رواد إلرنكون دي بيبي العتيق بشغف.

«مقهى- بار» شيِّد على كتف جدار قديم من القرون الوسطى، رمم بشكل مدروس علميا. أبقي على ثقوبه وهندسته المعمارية الأصلية، ثم تمت تغطية جانبه الأسفل بجدار من زجاج مقوى شفاف حفاظا عليه من العوامل الخارجية. إنه مكان محبوب مكتظ مليء على آخره.

النادل خوان. مغربي الأصل واسمه الحقيقي خالد. استقبلني مرحِّبا بحرارة.. بدوت له في شكل الآنسة الجميلة «مانويلا دي مويا» الإبنة البكر لصاحبة نعمته السنيورة «خانين دي مويا» وهي سيدة يهودية ثرية عاش أجدادها المهاجرون من الأندلس في مدينة فاس بالمغرب قرونا، ولكنها قررت أن تعود إلى إسبانيا. أرض أجدادها -كما تقول دوما

- لتعيش رفقة أسرتها الصغيرة. ظلت السنيورة خوانين دي مويا على علاقة طيبة ووطيدة مع المغاربة. خوان أو خالد يدين لها بالكثير، لذلك كلما جاءت ابنتها مانويلا إلى كافي-بار «إلرنكون دي بيبي» رفقة صديقتها الشقراء الجميلة «أنخيلا»، يعاملها مثل ملكة.

كنت أدري أنها لن تأتي هذه السهرة.. عقلي الاصطناعي المتطور خطط لذلك مسبقا. كان علي أن أفعّل الرقيقة الإلكترونية الخاصة بالتمويه، قبل الولوج عبر الباب الخارجي الذي يخزن ضجيجا عارما يعصره خلفه. حالما فُتح اندفعت الأصوات والموسيقى العالية نحو الخارج مثل شلال قوي، أو انفجار سدّ ممتلئ، أو يقظة بركان عظيم على حين غرة. نظر خوان باستغراب إلى محجوبة وهو يدعونا إلى الداخل رافعا حاجبيه، ثم تلعثم في سؤاله موشوشا في أذني:

- أين أنخيلا؟ هل انفصلتما؟. يا إلهي.. أنا آسف.
- هذه محجوبة. قلت له وأنا أشير إليها بينما كانت منشغلة عنا بما تشاهده لأول مرة في حياتها. منبهرة بما ترى من ناس وأجواء جديدة وغريبة عليها. تتلفت في كل اتجاه. تكتشف عالما لم يخطر لها على بال، و لم تفكر يوما أنها ستتعرف عليه.

- إذن.. محجوبة.. هي عشيقتك الجديدة؟ أصر خوان على أن يعرف، رافعا حاجبيه أكثر:

ابتسمت له ثم هززت رأسي مؤكدة ذلك. التفت إلى محجوبة. تفرسها بدقة. مررها بسكانير عينيه السوداويين، هز رأسه عجبا. كان لحظتها يقيم مقارنة بين عشيقة مانويلا دي مويا، «أنخيلا» الشقراء الفاتنة، وبينها.

قطعت حبل أفكاره وأنا أشير له متسائلة عن المكان المحجوز لنا مسبقا، فما كان منه إلا أن ساقنا بترحيب كبير إلى طاولة جميلة حولها مقعدان وعليها وردتان حمراوان في وعاء أنيق من الخزف الأبيض الناصع. طاولة منتقاة بحبّ. قريبة من منصة الحدث المنتظر. أعرف أن مانويلا دي مويا كريمة معه دائما. خوان أو خالد ينتظر بقشيشا عاليا. طبعا سأمنحه أكثر مما تمنحه له مانويلا دي مويا. لن يكتنفه الشك والحيرة سوى بعض مضي وقت طويل. حين ستأتي مانويلا الأخرى رفقة عشيقتها الشقراء الجميلة آنخيلا.

فجأة.. سادت لحظة صمت قصيرة. لحظة صمت كشهقة جماعية لراقصات من فن رقص البالي تحت الماء، يخرجن رؤوسهن الجميلة للحظة ليستعدن أنفاسهن بعمق، ثم يعدن إلى الغطس لإكمال اللوحة الراقصة. هكذا..

نعم.. انخفضت أصوات الرواد فجأة، بعد أن انطلقت من المكبرات غير المرئية، المزروعة بإتقان في كل أركان المقهى كافي-بار، أغنية جديدة من سلسلة الأغاني المختارة التي يختارها أصحاب إلرينكون دي بيبي تلبية لأذواق رواده كخلفية عذبة ترافق سهرات يوم السبت. انخفض الضجيج البشري حين ارتفع الصوت الـ «فوق آدمي» لزهرة البرتغال، «أماليا رودريغس» مطربة «الفادو». انخفضت أصواهم كما تفعل الجنادب عندما يفاجئها صوت محرك مدوّ لطائرة تمر عاليا فوق الحقل الذي تتناجى فوق عشبه وفوق غصون أشجاره، فتصمت. هكذا..

تلك الشهقة. شهقة لا هي للحياة ولا هي للموت. لا هي للفرح العارم، ولا هي للحزن القاتم.. يصمتون لأن آهات الفادو وإيقاعاته تخلط حساباهم البشرية، وتصنيفاها الساذجة. الفادو القادم من خلف حدودهم من الغرب كله، إلا بعضه بأقصى الشمال. من عند جيراهم البرتغاليين الذين يتقاسمون معهم حكايات جرفها التاريخ المشترك. أصابتهم العدوى. فالفادو يجري في دماء جيراهم، كما يجري المحيط الواسع الممتد على حدودهم الغربية. المحيط الأطلسي. ليس لجيراهم غيرهم من جهة الشرق وغير الماء من جهة الغرب. حدود جمركها الماء وأفق مترامي الأسئلة على اللاشيء.. على

الفراغ الرهيب، المخيف. الغامض، يشحن الأفئدة بالشجن.. الشجن.. الفادو!!!

جيرالهم البرتغاليون يفتحون عيونهم من جهة على أسئلة المحيط المطلقة والتي لا تنتهي ومن جهة الشرق على تاريخهم، ومنه ما تبقى مما تركه العرب من لغة الحنين القاهر. هؤلاء الغرباء الذين جاؤوا قاهرين لهم من أرضهم، دون أن يتمكنوا من نسيان تلك الأرض البعيدة في الشرق. حنينهم المتوارث إليها صار غناء باكيا يسكن حناجرهم على الرغم من بقائهم في بلاد البرتغال أربعمائة سنة. البرتغال.. هكذا سموها هؤلاء العرب على شرف حقول البرتقال اليانعة به. حضورهم مازال يعج به كل شيء صامت. ويسكن في مواويل الفادو الموجعة، ونداءات حناجره ذات البحات الغريبة. لكنه الفادو.. يسكن جينات الإسبان والبرتغاليين معا.. لو أهم حللوا ذرة صغيرة غير مرئية من أجسادهم البشرية في مختبر من مخابر مركز كونسيونس، لوجدوا فيهم قرابة من دماء الشرق، وسرا من أسرار المحيط الأطلسي المفتوح على الغموض. تماما كما يحن دم البردادي إلى العودة وفتح أراضي الحنين الآخر من جديد..

لا غرابة ولا عجب إهم هكذا هؤلاء البشر.

صمت رواد مقهى-بار إلرنكون دي بيبي جميعهم في حضرة الفادو.. ليس بغريب إن صمتوا. إهم يعودون للحظة

لاكتشاف ذواتهم.. يا لهؤلاء البشر. إنهم بسيطون وشديدو التعقيد في الوقت نفسه.

- ماذا أشرِّبكما؟؟ يسأل خوان/خالد بابتسامة واسعة وهو يفرك كفيه بحرارة بعد أن وضع أمامنا أطباقا صغيرة متعددة ومختلفة من مقبلات شهية.. هي طريقته المحببة في التعامل مع الزبائن.

- «بورتو» لي أنا و«برتقال» لمحجوبة..! قلت دون تردد بينما كان بصري يتأمل تحفة أثرية تقبع فوق نصف سارية تزين الجانب الأيسر من المنصة الرئيسية. إنها قطعة من تحفة أثرية هُرِّبت من متحف بغداد العريق بعد أن هدمته الحرب. تحفة جاءت هدية لـ إلرنكون دي بيبي من أحد رواده الأثرياء بعد أن اشتراها من مهاجر ينتمي إلى شبكة عالمية لتهريب الآثار.

محجوبة تشرب ببطء. كلما رشفتُ من كأس البورتو جرعة إلا وفعلت مثلي ورشفت من كأس البرتقال.

اثنان وثلاثون دقيقة مرت. انفتح أخيرا الستار على المنصة العالية. عالية بحيث تشرئب أعناق الزبائن الشغوفين نحوها. لم يكن بها سوى شخصين. واحد بالزيّ التقليدي المغاربي بجلباب أبيض مقصب بخطوط ذهبية وطربوش

أحمر. يجلس في أقصى اليمين وهو يعانق آلة العود، بينما الثاني في أقصى الشمال من المنصة يرتدي اللباس التقليدي الإسباني، ببذلة سوداء وقبعة سوداء أيضا بأطراف واسعة، ومنديل أحمر مربوط بأناقة حول عنقه، وآخر أكثر حمرة يعقده حول خصره. يحمل آلة الغيتار بفخر.. حالة خاصة تكتنف الزبائن. ارتفعت نسبة الأدرينالين في دمائهم. رفعوا كؤوسهم تحية للمتناظرين قبل أن تبدأ المعركة الموسيقية.

هنا أيضا.. لا فرق.. وجود البشر مرتبط جذريا بالمعارك والحروب. الحرب مصدر شقائهم كما هي وسيلة تسليتهم. أفكر في مكان آخر في المشرق أتيت منه. تركته ملتهبا. تأكله نيران الحرب.

ألاحظ رجفة الكأس في يد محجوبة. تحملق في الموسيقي الذي يرتدي الزي المغربي وهو يحتضن آلة العود.. ابتسمتُ لها مطَمْئنة. وربَتُّ على كتفها.

الآن سيبدأ القتال الموسيقي..

ستحدث حرب أخرى في هذا المكان من الأرض. حرب رمزية مصغرة من صورة تلك الحروب التي تقع في أمكنة أخرى على ظهر الكوكب ثم فوق الكواكب الأخرى في زمن مستقبلي ليس ببعيد، بين خصمين مختلفين حد العداء في المعتقد واللغة والعادات واللون والجنس و..

عدة مرات وبمرح مسرحي، يقف الزبائن الحاجزون على الجانب الأيمن من القاعة الكبيرة لحظات. يلوحون بكؤوسهم ثم يجلسون وهم يرددون أوللي.. أوللي. ثم يرد عليهم الزبائن بالجانب الأيسر يقفون ملوحين أيضا بكؤوسهم نصف المليئة مرددين أوللي أوللي. لا تنتبه محجوبة لصوتها الـذي يضـيع وسط الضجيج. كانت تبدو سعيدة. أتظاهر بأنني لم أسمع و لم أر شيئا.

إنها حرب موسيقية وشعرية بين المتخاصمين المتقـابلين المتناقضين في المظهر لكنهما يشتركان في التفاصيل من تاريخ واحد.. تـاريخ بشـري حـزين. ملـيء بالانكسـارات والانتصارات الوهمية لكليهما. من التنافر والتشـاجر. الآن سيشرعان في حرب رمزية بالغناء والموسيقى وليس بالرماح. جمهور القاعة، التي خفضت إدارتُه إنارتَها كالعـادة كلمـا بدأت المناظرة، متأهب. كل من الزبائن الكثر يحمل كأسـه في يده، بينما اهتمامه وجميع حواسه متجهة نحو المنصة.

- حي على العراك الموسيقي الذي سينطلق بعد قليل.

ما يحدث عادة أن يبدأ كل مـن الموسـيقيين بوَصـلةٍ موسيقية قصيرة. على الأول أن يفتتح الحلبـة بأغنيـة مـن الفلامنكو لــ «دون أنطونيو تشاكون» معشوق الجمـاهير، هذا المغني الأسطورة لم يفتر حبه في قلوب الناس هنا جـيلا

بعد جيل حتى بعدما ودعوه بجنازة تليق بالملوك عند رحيله، بعد أن عبر الأرض محملا بالفلامنكو من 1869 حتى 1929. افتتاح المبارزة بمقطوعة له ستوقظ سطوة الموسيقى في قلوب الحاضرين ستنقلهم إلى عالم موازٍ. بعد انتهائه مباشرة ينطلق العازف الثاني. يحتضن عوده العربـــي ويؤدي مقطعـــا مـــن التراث الأندلسي العريق، الذي كانت تصغي إليه وتطرب له أحجار المكان من قرون خلت. الحقيقة لا يخفى التشابه المخبأ بين ثنايا المقطوعتين. لا غرابة.. هؤلاء البشر ألم تنبتهما أرض مشتركة؟

عادة ما ستتوالى المقطوعات المتناظرة أكثر حدة وعنفـــا كلاميا جارحا. كل واحد من المتنافسين ينتقد ما قاله الثاني. يعارضه بشراسة بأبيات مغناة، ثم يرد عليه الآخر حتى تصل الضراوة منتـــهاها. تتصـــاعد الضـــحكات والصـــرخات والتصفيقات والتهليل كلما انتهى أحدهم من الـــرد علـــى الآخر. الحكم المختفي رفقة مستشاريه وسط النـــاس يقـــوم بتسجيل نقاط القوة ونقاط الضعف لكليهما.

على الردود أن تكون سريعة ومفحمة ومقنعة للجمهور حسب موهبة كل واحد منهما في سرعة البديهة والارتجال. وبعد ساعة ونصف من المبارزة الموسيقية والغنائية سيصـــفق الحضور عليهما معا إن أبدعا أما وإن أخفقا أو أخفق أحدهم

في إدهاشهم فسيستنكرون ذلك بهتافات وإشارات. في نهاية المبارزة يأتي الدور الصعب للحكم الذي سيصعد إلى المنصة للإعلان عن المنتصر وسط الهتافات. وسيكون الأمر أكثر صعوبة إن لم يتفق معه الجمهور.. ووراء كل ذلك كله سيربح أو يخسر الأغنياء الحاضرون أموالا طائلة عن طيب خاطر في مراهنتهم على الرابح.

هذه المرة حلا لي أنا المرأة الآلية الوحيدة في السهرة أن ألعب قليلا مع البشر. أن أشوش على عادتهم. على حروبهم الرمزية. على انتصاراتهم الوهمية. أن أغير لهم أركان اللعبة وشروطها.. نعم.. إكراما لمحجوبة التي تجلس بقربي تشرب كؤوس البرتقال لتطفئ نارا داخلها لا تدري مصدرها. تشعر بالغربة. تنظر بدهشة إلى ما يحدث حولها.

عالجتُ إحدى الرقائق النادرة في دماغي. أرسلتُ أمواجها من بؤبؤي عينيّ نحو المنصة فلم يعد في مقدور المتنافسين أن يريا غيري. أمسيا في حالة انجذاب مغناطيسي. وقعا بلذة في هاوية سحر جمالي.

عيناه مصوبتان نحوي، عنقه الملفوف بمنديله الأحمر يلوح كوردة، كهدية حب. أصابعه تداعب أوتار غيتاره بينما تخرج من حنجرته القوية بحة وآهات عالية متقطعة:

..Mi amor mi amor)
..La vida es un carceeeeel
con ...hoooo...hooooo
(puertas abiertaaaaas

(يا حبيبـــي يا حبيبـــي.. الحيـــاة ســـجن.. بـــأبواب مفتوحة...)

كررها مرات عديدة، بإيقاعات مختلفة وبصوته الصارخ الجريح. كان يوقظ أجداث الأجداد النائمين في عمق كـــل واحد من الحاضرين الذين استجابوا بقوة. وعنـــدما انتـــهى كانت عيناه معلقة بـــي يبحث عن رد فعلي. لم أصـــفق. لم أهتف. ابتسمت. ابتسمت فقط. كان سعيدا بذلك. لم يفكر أنه بخل مني. لم يأبه بأحد من هؤلاء الذين كانوا ما يزالـــون يهتفون بنشوة استحسانا لأدائه ويلوحون له بمناديلهم. رفـــع الموسيقي الثاني أكمامه وعانق عوده دون أن ترف له عين و لم يشغله ما يدور حوله عن النظر إليّ. إنه على عجلة من أمر أن يأتي دوره. عاد الصمت. ضم عوده بمنتهى الحنـــان فعـــزف وصلة موسيقية أندلسية بارعة ثم غاب في موال يتحرك له من مكانه الحجر:

يا تاركيين وراءهم أشواااااقنا..
عوووووجوا على ربع المُحِب وميلوووووا...!

وكما فعل زميله، كان يتفنن في أدائه الـــذي لم يتـــرك قلوب الحاضرين دون خفقـــات عنيفـــة. ودون هتافـــات استحسان.

يمرّ الوقت. حرارة بشرية عاليـــة. هتافـــات. نـــداءات استزادة. تصفيقات. نقر كؤوس وقُبَل محمومـــة. لم تحـــدث المعركة الطاحنة المنتظرة. لم يحدث تنابز. نسي الحضورشروط لعبة الحرب في سطوة حضور الحب.

أوتار الغيتار تشتبك مع أوتار العود يعزفان ويغنيان معا بصوتيهما القويين العجيبين القادرين على المستحيل. نظراهما تغمرني مثل شلال ماء. كانا يعنياني:

Para no verte tanto

Para no verte siempre

En todos los segundos

En todas las visions

لكي لا أراك كثيرا

لكي لا أراك دائما

في كل الثواني

في كل الرؤى..!

ولأن في كل واحد من البشر الحاضرين عاشقا سعيدا أو حزينا، متعبا أو في فترة هدوء مؤقت، فقد غمر القاعة شعور

عارم بالفرح فجأة. بعد أغنية لعشق الحرية، للغجري المتمرد كررو مالينا اختتم الموسيقيان معا المناظرة بوصلة أندلسية بإيقاع سريع وراقص:

قدوم الحبيب تمام السرور
وكاس المحبة علينا يدور
يا أهلا وسهلا بمن زارنا
أمير الملاح وتاج البدور.!!!

لم يبق في القاعة رجل أو امرأة من كل الأعمار من هؤلاء البشر دون حركة.. حتى خوان. حتى إدارة المقهى-بار إلرنكون دي بيبي، حتى السيد الحكم. لم يحدث أن غنى المتنافسان معا. إنها أول مرة. إنها ضد شروط اللعبة. إلا أن جميع الحاضرين كانوا في حالة تشبه الصوفية، يدورون ورؤوسهم مائلة وأذرعهم تعانق السماء. أسكرهم الإيقاع. لم يكونوا سكارى بما كانوا يشربون. بل أسكرهم هذا الشيء النائم في جوانية كل واحد منهم مثل جرح قديم بألم لذيذ. انتفض داخلهم قادما من ثلاثة عشر قرنا أو يزيد. تداخلت الأزمنة. ووقع ما لم يكن في الحسبان.

في غفلة عن الجميع ما عدا عيون الموسيقيين التي تتبعني مثل أربعة أسهم لامعة، تركت بقشيشا لخوان على الطاولة تحت المنديل، كما تفعل عادة مانويلا دي مويا حين تأتي رفقة

عشيقتها الجميلة الشقراء آنخيلا. ثم أشرت لمحجوبة التي كانت غائبة في جذبتها تدور في حضرة صوفية وتغني بصوتها الذي تحرر من الخوف والخرس. لم ترني. لم تمتثل لأمري. كانت تبتعد في دورانها الصوفي وسط الجموع، تدافعتُ بقوة حتى وصلت إليها فجذبتها من ذراعها. توجهت وأنا أدفعها بقوة نحو الباب الخارجي الكبير، الذي أخفى بعد انسداده وراءنا ضجيجا عارما خلفه. وبشرا يعيشون حالة نادرة دون طبول الحرب.

قضينا أربع ساعات ونصف في الطريق من مرسية إلى قرطبة.

- وصلنا إلى الأندلس يا محجوبة!! قلت لمحجوبة التي استيقظت لتوها وقد كانت تغط في نوم عميق.

- واشنُو هو الأندلس؟ قالت وهي تفرك عينيها. ثم بسرعة وضعت يدها على فمها. لأول مرة أسمع صوت محجوبة يحدثني. لم أبدِ أي اغتراب لذلك. لا عين رأت ولا أذن سمعت.

لأول مرة في كينونتها كلها، تستيقظ محجوبة في قرطبة، بفندق من هذا الطراز وبخمس نجوم. في غرفتها رقم27 بالطابق الأول من أوتيل إستريليا. من إقامتي في جناح في الطابق العلوي، أراقب من شرفاتي الأربع معالم المدينة الحضارية التي تزهو بعمرانها وهندستها الحديثة.. راقت لي فكرة أن أعالج رقاقة استرجاع الزمن، لأشاهدها كما كان يحلو للبردادي أن يصفها لي بكثير من الحنين. وهو يقسم بأغلظ الأيمان أن يعيدها لحكم المسلمين ويعيد فتحها سائرا إليها على طريق مرصوف بالجماجم.

وحدث شيء لا يتصور ولا يخطر على بال آدمي. انقلبت الشوارع أمامي إلى مساحات واسعة بحدائق منبسطة على مد البصر الآدمي، وبقصور باذخة، وبيوت جميلة. تلوح من كل صوب أعالي مآذن مئات المساجد وتظهر الكنائس ومعابد لليهود وأسواق عامرة وحمامات. وخلف سور فاصل هناك تجمعات لبيوت بسيطة فقيرة. الناس ذاهبون وآيبون. منهم الفقراء بأثواب رمادية وآخرون يرفلون بزهو في أزياء تطغى عليها الألوان الزاهية المتناسقة. يمشون الهوينى ويشيرون

بأكمامهم الحريرية الواسعة بأناقة وهم يتحادثون.

أثار اهمامي رجل متميز هناك، يحمل عوده بأناقة، بينما يتلاحق الناس للاقتراب منه والتزاحم حوله للسلام عليه. إنه موسيقي شهير يدعى زرياب. طالما حدثني عنه البردادي في جلساتنا الحميمية بكثير من الإعجاب والفخر. ترك مدينة بغداد، ليستقر بعد تونس في قرطبة سنة 822 ويؤسس مدرسة للموسيقى ويطوّر الغناء العربي الأندلسي، ويبتدع موسيقى الموشحات والزجل التي تتمخض عن فن الفلامنكو. واخترع نظام النوبة في الموسيقى الأندلسية. أراه من شرفتي. رجل جذاب. أنيق جدا في هندامه وحركاته ومشيته ذات الإيقاع والجلال والأبهة. النظرات تتبعه من كل جهة وكأن حوله هالة، أو أن به مغناطيسا غريبا يشد شغاف قلب وانتباه كل من يراه أو يلمحه من بعيد..

- آه يا البردادي يا عاشق الحرب لو كنت معي الآن. لوكنت مخلوقا آليا مثلي لتفعّل رقاقة طي الزمان لرأيت ما كنت تبحث عنه في كتبك القديمة رثة الأغلفة. تورق المخطوط بعدما تُبلل إبهامك وسبابتك بلعابك. تطوي دفته لتفتش في آخر وآخر. تقرأ لي مقاطع عن أخبار العرب في الأندلس. وأنا أستمع إليك بشفقة آمرأة آلية. حالتك المستعصية

جعلتني أشيخ سبعمائة عام. حتى خشيت أن يتصاعد دخان من رأسي فيفضحني ويشيع خبر حقيقتي الآلية. ترديدك للكلام أفقده قيمته. ليتك كما تملك تلك الأسلحة المتطورة للحرب وأدوات القتل والتجسس وأدوات حياة عصرك الذي تعيشه، تملك فقط رقاقة إلكترونية في رأسك ذاك لتسكتك. لترى بأم عينيك الحقيقة التي تناقلوها من قبلك حتى وصلت إليك من مفاصل ثلاثة عشر قرنا.

تعال وانظر. ستتخطى هراءك البشري على أنك إله صغير تدافع عن إله كبير. وتروي عطشك المزمن للدم الكامن في خلاياك. ثم تكابر حين تنغمس مثل طفل في سماع أغنية حب بصوت ناظم ا لغزالي مطربك المفضل. تهدهدك وتبكيك.

- أوف... يالك.. تبا لك ولفصيلتك من البشر المتألهين.

وسط الجموع أشاهده يمرّ.. لا يخفى ظله على نبيهٍ. إنه ابن قرطبة موسى بن ميمون، يسير ببطء. لا بد أنه يفكر في أمر يشغله في الفلسفة أو الطب. أتذكر الآن حفيدته حدة آل ميمون. ليت رأسها المقطوع في برداد يحضر الآن لتراه. لترى من باعت كل أملاكها وغامرت بحياتها البشرية المؤقتة،

لكي تسترجع خطواته تلك على أرض قرطبة. كم كانت فخورة به وتصفه دوما بالمتدين العاقل.

- آه ياحدة إنه مجرد وهم بشري.. فما الذي دهاك؟.

البشر يتعلقون بأوهامهم.. يتشبثون بها. ولأن للأوهام البشرية أجنحة قوية، فإنها تطير بهم إلى أعلى.. أعلى فأعلى.. ثم ترمي بهم نحو الأرض. نحو الواقع.. فيتهشمون..

آسفة من أجلك حقا يا حدة. كان حلمك هو نفسه حلم البردادي ولكن السكين الذي جزّ رأسك هو سكينه.. لا يشفع الحلم المشترك بين البشر حين تختلف أديانهم..

****

انتباهي لرنين الهاتف الأسود على المنضدة قرب السرير يشوش على عمل الرقيقة الإلكترونية لاسترجاع الزمن. تختفي حركة حياة العصر الأندلسي العتيق، وتعود كل البنايات الحديثة، ومظاهر الحياة المعاصرة، تتمطى خلف زجاج شرفات الجناح الأربع، وحدها تظل زرقة الوادي الكبير تحادث زرقة السماء. تسردان تاريخ البشر الدموي الذين مروا بينهما.

بعد عودتنا، وبينما محجوبة تجرب بسعادة قصوى الألبسة الجديدة الجميلة التي اشتريتها لها من قرطبة، كانت مادام (نيكول) التي جاءت لزيارتي برفقة ابنها الكاتب المشهور (هيغو) تبدو قلقة. أخبرتني وعلامات الفزع على وجهها بأنها لمحت من بعيد حركة غير عادية وأضواء شاحنات ليلة البارحة حول المزرعة. ولولا معارضة ابنها لكانت أخبرت الشرطة بما يحدث في مزرعة صديقتها حدة..

- ثم ماذا أقول لحدة حين تعود؟

هي لا تعرف أن حدة تنام بلا رأس في قعر حفرة بالشرق الأوسط..

أخبرتني أنها عندما نادت ابنها لتشعره وتخبره بما يحدث في المزرعة، وكان كالعادة غارقا في عوالم روايته السريالية الجديدة. نصحها أن تعود إلى نومها وأن ما تراه ما هو سوى تهيؤات خيالية، عادة ما تحدث من فرط الشيخوخة وأمراضها.

هززت رأسي موافقة على كلامه. ما كان علي إلا أن أستعمل طاقتي الآلية لأمحو من ذاكرتها الأربع والعشرين ساعة الماضية. غيرتُ مجرى الحديث:

- عن أي شيء تكتب الآن يا سيد هوغو ما هو موضوع روايتك الجديدة؟
- أكتب عن العشق كالعادة. إنها قصة حب جميلة..
- جميل يا هيغو.. «الحب نافع للصحة» كما يقول الفيلسوف العقلاني ديكارت في مقالته السابعة والتسعين من كتابه حول انفعالات النفس.!

ابتسم ببلاهة.. ثم صمت.. لكنني ولكي أشجعه على الكلام، أبديت اهتماما وتظاهرت بالإصغاء له، لكي يختصر في حديثه الطويل، الطويل جدا، ما كتبه لحد الآن من روايته التي ستنشر قريبا في خمسمائة صفحة وعلى غلافها صورته كبيرة.

هيغو يحفظ مقاطع طويلة من روايته. يتلوها وهو يحرك ذراعيه العاريتين حتى المرفقين. يصرّ أن يشمر عليهما دائما، وكأنه طبيب توليد أو على أهبة أن يحشرهما في حوض أسماك. يسرده مقاطع تصف بلغة رومانسية بالغة الرقة، مواعيد الحبيبين قرب النهر، والسماء الشاهدة على العناق والقبل، وألم الفراق والهجر والعشق المؤلم، والعصافير والسواقي الرقراقة والقبلات المحمومة والسحب العابرة للقارات حاملة رسائل الشوق... ثم يضيف بابتسامة فخر بأن صديقة العائلة الدكتورة «ماري كومان» الناقدة الشهيرة بعلاقاتها المتشعبة

والناجحة والمثمرة، ستقوم بالدعاية لها وستكتب عنها في ملحق إلموندو بإسبانيا ولوموند بفرنسا. وان القراء سيقبلون عليها في طوابير طويلة لا محالة.

تحدثنا طويلا عن الحب وقصصه وأوجاعه وأحلامه وأوهامه.. لم يعد أحد يذكر قصة الشاحنتين. إنها فقط من أعراض الشيخوخة وأمراضها.. فليحيا الحب يا سيد ديكارت إنه حقا نافع للصحة.

شجرة الأرحام

ستة أيام مرت. بل ست ليال بالحساب البشري. في الليلة السابعة وتحت جنح الظلام قفز عمار الباتر إلى الداخل. كان وجهه مقفلا متجهما جادا.

- علينا أن نذهب. قال وهو يشبك يديه خلف ظهره.

تصنعت استغرابا يصدر عن عقل بشري:

- كيف..؟ لماذا..؟ أين..؟ متى..؟

كنت أعلم أن الأمور العملية قد بدأت. وأن حربا بمواصفات لم تعرفها البشرية من قبل على الأبواب. وأن البشرية من جديد في مواجهة الحرب والجوع والمرض والشتات والتمزق والموت الجماعي. وأن عمار الباتر قد قطع رأس البردادي بعد تردد، إلا أنه لم يتخل قيد أنملة عن الوعد في بسط دولته الإيمانية على العالم. تبنّى استراتيجيته الحربية الفريدة التي لم يسبقه إليها شياطين الحرب عبر التاريخ. فبينما زعماء الدول العظمى مشغولون بالخراب الذي أحدثوه في المشرق فلم يغدق عليهم البترول الأسود كما كانوا ينتظرون بل حول واقعهم ليوم أسود. منشغلون بخلافاتهم حول زعامة العالم فإن أتباع الدولة الإيمانية يتحركون مثل الكثبان عبر

العالم يتزايدون بالملايين في الغرب والقارات الأخرى. فقدَ إمارته في المشرق فاستعادها بقوة في الغرب بسرية تامة. لم تفتر رغبته أبدا. بحنكة نادرة، الملايين من الأتباع يهيؤون المناخ الجديد. الآلاف يندمجون في العمل الإداري والسياسي. ينتخبون، يندسون في دواليب الدول الغربية الديموقراطية، بينما آخرون كثر يديرون مئات الآلاف من البيوت ومن المساجد المزروعة تحت الأرض. الأحياء الصعبة حيث يتمركز المهاجرون، تؤم وتجند الملايين تزودهم بالمال وبالأسلحة المتطورة. ملايين من الأتباع الجدد، من العرب ومن سائر القوميات الصغيرة ومن الوافدين عبر البحر والبر إلى أوروبا. إنهم جاهزون تماما. لا ينتظرون منه سوى إشارة لبدء الحرب واكتساح المدن الكافرة.

- وصل البردادي إلى بواتيي مر بالجزائر ليأخذ ابنه (..مختار...). وأمر أن يراك.! قال عمار الباتر بصوت مبحوح. إنه لا يعرف انني أعلم أنه يكذب. وأنني أرى في بؤبؤي عينيه رأس البردادي ورأس ابنه تتدحرجان عند قدميه.

وكما يفعل البشر. تظاهرت بتصديق الخبر. ثم طلبت منه أن يجلس لشرب الشاي حالما أعود، ففعل.

تركته جالسا عيناه منغرزتان في ضوء هاتفه. خرجت وفي يدي مصباح صغير للتمويه. إنه لا يلزمني أبدا. أطفأته ووضعته في جيب قميصي حالما ابتعدت عن البيت حيث تأكدت من أن عمار الباتر لا يمكنه أن يراني. أنا مخلوق آلي لا أحتاج إلى النور الصناعي. إنه بداخلي، أستطيع أن أرى بوضوح النهار ما يخفيه ظلام الليل عن أبصار البشر المحدودة. في طريقي تلمع فقاعة ضوئية هناك.. هذا الهناك يساوي سبعا وأربعين سنة، يراها العلماء من البشر بواسطة آلاتهم المتطورة ويطلقون عليها اسم «نجم». توجهت نحو الحديقة بهدوء. وقفت قبالة شجرة التوت التي نبتت حيث دفنت الرحم الحيّ. تمايلت أغصانها المحملة بالثمار وكأنها حبات من اللؤلؤ. نطقتْ حالما لمست جذعها.

- أتريدين استرجاع رحمك.. إنه حي في كل واحدة من ثماري هذه.؟؟

لم أرد عليها.. كنت أنظر إليها. إلى جمالها الأخاذ.

- أحذرك مانويلا.. فأنت تعلمين إن أنت أكلت واحدة منها ستسترجعين رحمك فورا، ستشعرين به

يتكور في أحشائك، يملأ مكانه الفارغ منك، ويمكن إثر ذلك فقدان شيء من طبيعتك كـامرأة آليـة. ستقعين في الحب كالبشر وسـتكرهين وتنـتقمين وتظلمين وتتألمين مثلهم. ستختلطين بالتراب.

لم أردّ. تشاغلت بمراقبة النجم ذاته ذاك الذي يبعد أثره بسبع وأربعين سنة ضوئية.. والذي لا يراه البشـر سـوى بتلسكوب شديد التعقيد بينما أنا المخلوق الآلي أراه واضحا أمامي.

- تبدين مترددة.. أنت على حق يجب الـتفكير مليـا يا مانويلا. أنت تعلمين أنك لن تستطيعي نزعه آليا كما فعلت في المرة الأولى.. لقد أضحى من تراب.. أضحى رحما نصفه آدمي يا مانويلا.

داعبت الأغصان اللامعة بيدي كانت حبات اللؤلؤ المنيرة ناعمة الملمس، تدغدغ باطن كفي.. تريثت قليلا ثم قطفـت واحدة منها، تأملتها قبل أن أضعها في فمي كان مذاقها مرّا في حلقي.. اهتزت شجرة التوت ومالت بقوة وما من ريـح عاتية في الجوّ. تساقطت حبات التوت حتى لم تبق واحـدة منها ملتصقة بغصنها.. أمست الأرض حمراء.. خرج نمل أحمر كبير الحجم. حملت كل واحدة حبة منها واختفـت تحـت الارض.. إنها تخبئ الأرحام المخصبة في مكان آمـن تحـت

الأرض. لن تستقر في مكان واحد. ستتحرك تحت قشرة التراب لتنتقل في جميع أركان الكوكب. ستنشطر الخلية بسرعة الضوء إلى ملايير منها. وحين ستنضج وتكتمل أجنتها ستخرج منها ملايين المخلوقات. ليست مخلوقات آلية مثلي تماما، وليست مخلوقات بشرية مثل البردادي. بل مخلوقات أخرى لم ترها الأرض من قبل. نصفها آلي ونصفها بشري.

في طريق العودة إلى البيت لم يعد النجم يظهر لي وكان الظلام دامسا. تذكرت المصباح الذي في جيب ثوبي.

الرحيل

لا يمكن لأي سائق بشري مهما أوتي من قوة أعصاب، أن يقطع ما يقارب أربع عشرة ساعة من ألمرية حتى مدينة بواتيي، لكن عمار الباتر الذي لم ينبس ببنت شفة مدة أزيد من أربع ساعات وإحدى وعشرين دقيقة، كان من حين لآخر ينظر إلي وأنا مستلقية في المقاعد الخلفية الثلاثة. رأسي مستندا على ركبتي محجوبة. فتبرق عيناه بشبه ابتسامة رضا ثم يعود حاجباه يرسمان علامة القلق الشديد. عند وصولنا إلى مشارف مدينة بلنسية نطق أخيرا:

- وصلنا.. أترين؟ هناك مدينة بلنسية.. الخليفة البردادي يقول إنها سقطت عامين بعد سقوط قرطبة. سنستعيدها بحول الله.!

مررنا بطريق جانبي مقفر لم تواجهنا أية سيارة. محجوبة بقربي تشعر بالأمان التام. لأنني علمت أنها تفضل الرحيل برفقتي على أن تظل عند السيدة بوكاج وابنها وعلى أن تعود إلى بيت أبيها وزوجته.. حين أخبرتها أنني قررت أن ترافقني، فرحت بعمق. عانقتني وبكت من الفرح. بحذر يتلفت عمار خلفه مرارا. وصلنا إلى مساحة واسعة منبسطة.

كانت طائرة صغيرة في انتظارنا.

حلقت بنا حتى سماء بواتيي.. يعود إليّ وجه السيدة نيكول بوكاج وصوتها المرتجف حبا لمدينتها بواتيي مدافعة ومرافعة عنها.

من أعلى. أشاهد نقاطا براقة تحت التراب. إنها الأرحام المخصبة من شجرة التوت بألمرية، تسبق الزمن البشري. إنها على أهبة الطلق. طاقة سلبية تجتاح الحقل المغناطيسي. شيء ما جلل يتهيأ حدوثه.

أوصيت أن تبقى محجوبة في غرفة قريبة مني.

- ماناول الله.. ماناول الله.. ماناول الله!! حالما دخلت الغرفة المخصصة لي حتى أغلق الباب خلفنا بسرعة. عانقني بحرارة كما يفعل طفل لأمه التي غابت عنه طويلا.
- البردادي أم عمار الباتر؟
- سأقص عليكِ الحلم العجيب الذي رأيته من ليلتين..

ثم يقول إن ملاكا آخر يشبهني وقف عليه في المنام. سأله عني. وأمره ألا يعلن عن بداية الحرب الكونية الإيمانية في غيابي.

- كثُر نزول الملائكة عليك يا زعيم المؤمنين.
- هذه من نعم ربي سبحانه وتعالى.
- المهم أن يتأخر عزرائيل قليلا.. قلت مداعبة.. لم يبتسم. بل ارتجف قلبه ثم أضاف بصوت متضرع:
- أطلب منك أن تخبريني عن زمن ومكان وطريقة موتي.
- أمهلني يوما واحدا كي أستشير أهل السماء. أجبته بكل جدية.

يعود إلى عناقه المحموم.

من أين تأتيه كل هذه الرقة.. وهو الذي لم تعرف حياته سوى الحرب والقتل والسبي والتشريد والهدم والحرق والتعذيب وقطع الرؤوس دون ترد، والإفناء؟ من أين؟.. البشر مثل النجوم لهم جانب مضاء والآخر مظلم. أنا الجانب المضيء لهذا المخلوق البشري الذي في صراع مع نفسه ومع الآخرين.

لم يبق مكان من جسدي لم يقبله مرتجفا بشغف العاشق وجنونه وعطشه.

يملأ كفيه بوجهي وكأنه يخشى على حفنة ماء بينهما أن تهرق. يقبل شفتي بشراهة وعطش. كان يحاول أن يرتوي دون لأي. جرب العناق والتقبيل والالتحام الجنسي والتمرغ فوق الجسد لكنه بقي على عطشه.

- أنا أعرف لماذا لا أشبع منك.. لأنك حور العين. أنزلك الله معجزة لنا. والحوريات لا يشبع منهن.

لم يكن من المجدي أن أقول له الحقيقة. إنه لا يدري أننا من طبيعتين مختلفتين. لا مقارنة القوة بينهما. لن يستطيع الارتواء من جسد آلي متقن الصنع طاقته ولغته الجسدية فوق طاقة ولغة البشري، الذي لا يملك من قدرة التواصل سوى خمس وخمسين في المائة من لغة الجسد، وثمان وأربعين بالمائة

من الصوت، وسبع في المائة من الكلام.. شيء ضئيل جـــدا. سيظل البردادي- الباتر دون ارتواء لأنه يحتضـــن جســـدا لم يكتمل في مدة أقصاها تسعة أشهر. بل صنع هكـــذا، بـــلا حدود لجاذبيته ولطاقاته، صنع دون تاريخ انتهاء صلاحياته.

أشفقت عليه حين أصابه الإجهاد ولسانه يلهج بـــاسمي.

نام وهو يردد:

- باركينا يا معجزة الله وقولي لله أن ينصرنا.. فمـــع الفجر يبدأ يوم إعلان الجهاد في الكون كله.

نام متعبا جدا.. لم يبق على صلاة الفجر سوى ساعات.

الملاك الخائن أم المخَلّص..؟

كان الليل في أوجه. فتحتُ كوة صغيرة منه على يوم الغد. أُطلُّ منها على الساعات القادمة من يوم الناس ذاك. يوم بشري آخر على هذا الكوكب غير المحظوظ. يوم آخر لم يصنعه وينستون تشرشل، ولا المارشال بيتان، ولا أدولف هتلر، ولا غيرهم من صناع الحروب التقليدية القديمة وقائدو الجيوش الجرارة، ومجانين السلطة والموت. من هذه الكوة التي فتحها أمامي عقلي البديع. أرى خطأ فادحا سيقوم به البردادي- الباتر. خطأ سيكلف البشرية حيوات خمسة ملايير من البشر. لا شيء غير القتل بكل أشكاله. من هذه الكوة نفسها أرى خطأ من نوع آخر. إنه خطأ تكنولوجي تسببت فيه العالمة «اسيان» بدسها الرحم في جسدي. أرى ملايير الأرحام المخصبة تخرج من تحت التراب. تستوي كمخلوقاتٍ نصفها شبه البردادي تماما ونصفها آلي. تتكاثر بسرعة عجيبة تجتاح الكوكب في زمن ضئيل. تأكل كل ما تصادفه في طريقها من بشر وحجر وشجر وكل مخلوق حي. منظر مهول أراه قبل ساعات من وقوعه.

البردادي- الباتر يغط في نومه.. سيستفيق وينهض ليعلن مع الفجر، من الجامع الكبير لمدينة بواتيي بداية هذا الخراب.

كنت أفكر في محجوبة. إن لم يقتلها بشر عادي مثلها، فسيبتلعها هؤلاء الوحوش الخارجون من الأرحام المخصبة. ستنتهي بمأساوية كما عاشت بمأساوية كملايير البشر مثلها..

كان علي أن أتصرف وبسرعة. أن أراجع أكثر الرقاقات سرية، المزروعة في أعماقي علّني أجد مخرجا لهذا الأمر الطارئ.

- - هكذا إذن.. لا خيار لي سوى تنفيذ المراحل جميعها كما جاءت في الرقاقة الألكترونية.

بدأت بإبراق ملايير الرسائل المقتضبة إلى مراكز البحوث التكنولوجية المتطورة، لإعلامهم وتحذيرهم ليأخوا احتياطاتهم فقط. أعرف أن ليس بمقدورهم وقف الدمار القادم. ولكنهم يستطيعون أن يساعدوا دولهم لمعرفة خارطة البؤر الخطيرة التي بعثت لهم بها للوصول إليها وتطويقها بسرعة.

لكن المرحلة الأخيرة فاجأتني بشيء رهيب. بحل واحد وحيد لا خيار غيره للقضاء على الأرحام المخصبة. حل لم أكن أنتظره. إن تلك الملايير من الأرحام المخصبة التي ستنطلق فيها الحياة بعد وقت قصير، مرتبطة بالرحم المركزي الذي يوجد في جسدي. حياتها مرتبطة بحياتي وموتها مرتبط بتدميري الذاتي. التدمير الذاتي يتم بتدوير لولب صغير جدا تحت جلد رأسي أعلى الرقبة.

جلست أفكر للحظات فقط. لا وقت لـــدي.. كـــان البردادي- الباتر قد استدار على جنبه الأيمن وغط في النـــوم من جديد.

لم يبق على استيقاظه وقت طويل ليعلن بدايـــة الـــدمار الشامل، و لم يبق على طلق الأرحام المخصبة ســـوى ســـتين دقيقة.

ثم قررت نهائيا:

اقتربت من البردادي- الباتر. كان نائما بعمق. مـــددت أصابعي وضعتها على صدره مكان القلب منه. كانت الطاقة المرسلة إليه فوق تحمله فتوقفت نبضاته للتو. تـــأوه قلـــيلا ثم ارتخى نهائيا.

فتحت الباب ثم ولجتُ غرفة محجوبة. ملامحها المطلة من النوم تبدو هادئة. حالما رأتني عانقتني بحرارة مثل طفلة عثرت على أمها بعد زلزال مهول. أصبحتْ شديدة التعلق بـــــي. أصبحتُ كل شيء بالنسبة لها. عائلتها وعالمها ومســـتقبلها وحاضرها. عانقتها وقبلت جبينها ومسحتُ على رأســـها ثم ناولتها بطاقتي البنكية وأوصيتها خيرا بنفسها. كانت تنظر إلي باستغراب ثم بخوف. ودون أن أخبرها عن السبب، طلبـــت منها بعد أن رفعتُ خصلات شعري إلى الأعلـــى أن تـــدير بأصابعها اللولب الصغير الذي يستقر بين أسفل الرأس وأعلى

الرقبة. بكل حب مدت أصابعها مرتجفة ممتثلة لأمري. أدراته بأصابعها فانطلق دخان أبيض من رأسي وانحدرت دمعتان من عينيّ، ثم شعرت بالتلاشي. وقبل أن أغرق في العدم، تنـــاهى إلى مسمعي بكاء محجوبة المخنوق الوجيع، وضحكات أطفالٍ في الحدائق العامة، وطيور الحمام ترتب أعشاشها فوق أعالي المساجد والكنائس. ومدن بعيدة، يوقظ الصـــباحُ ســـفنَها الراسيات. لكن ذئبا هناك. في الضفة الأخرى مـــن النـــهار. يعوي في ظلمة البراري. عواؤه يحـــرك قشـــرة الأرض مـــن جديد.

ربيعة جلطي

الجزائر- بواتيي- ألمرية. 2019

قلبُ الملاك الآلي

لا يرفض أبدا أي طلب لها، ولا يناقشها في أي اقتراح. كيف للعاشق أن يناقش معشوقته في ما تهوى؟ حتى لو كان هذا العاشق هونفسه ذلك الذي لا يهاب شيئا، ولا تؤذيه رؤية الرؤوس المقطوعة، بل لا تحرك فيه شيئا سوى إحساس غريب بحرارة لذيذة تجتاح جسده. يفسره بأنه وقع عين الله عليه و لمسة يده التي هي علامة على رضاه وهو يراه يستميت في إفناء أعدائه وأعداء الله من الكفار والمشركين. يقف منتصبا، ينظر ببرودة إلى كومة تلك الرؤوس المقطوعة وقد وضعت أمامه على الأرض كما اتفق. وقد استقرت كل واحدة منها مقلوبة أو مائلة على جهة ما فيها. يقترب. يقرفص قريبا منها. يحدق في عيونها المطفئة، وملامحها الغريبة، الملطخة بسواد سوائلها وقد مرغت في التراب. يطيل النظر إليها بلذة قصوى. ثم كالعادة يصرّ أن يصلي عليها وحده «صلاة جهنم» كما يسميها. كل مرة يقف ليكبر أمام كومة منها، سواء تلك التي يقطعها بيده، أو التي يأتي بها رجال من جنوده من مناطق المواجهات الساخنة، مكدسة في عربة مكشوفة السقف تطوي عجلاتها منعرجات الطريق المخربة المحفرة، تتقافزالواحدة فوق الأخرى دون أجسادها التي ألقي بها في أماكن بعيدة. ولأنهم يعرفون أن ذلك يسره ويشعره بأنه على أهبة الانتصار والمرور إلى مرحلة متقدمة من حربه الدائمة، فإنهم حال وصولهم، يفرغون العربة منها، ثم يكدسونها قرب خيمته الزرقاء الباذخة، سيكون له وحده الشرف بإرسال أرواحها إلى جهنم عبر صلاته التي ابتدعها وسماها «صلاة جهنم».

ربيعة جلطي

- روائية وشاعرة.
- من مؤلفاتها:

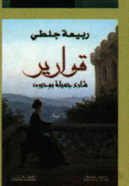
..و حديث في السر
من التي في المرآة؟!
حجر حائر
الذروة

- صدر لها عن الدار:













منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com


ISBN: 978-614-02-1778-2
9 786140 217782

تصميم الغلاف: يوسف القوتلي

جميع إصداراتنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com